البيوت

عناصر الموضوع

مفهوم البيوت	٦٢
البيوت في الاستعمال القرآني	٦٣
الألفاظ ذات الصلة	٦٤
البيوت نعمة	٦٨
أنواع البيوت	٧٧
الخروج من البيت ابتغاء مرضاة الله	٩٤
آداب دخول البيوت	١٠٣
البيوت والفتنة	١١٠
البيوت والعذاب	١١٥
النساء والبيوت	١١٨

مفهوم البيوت

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «(بيت) الباء والياء والتاء أصل واحد، وهو المأوى والمآب ومجمع الشمل، يقال: بيت وبيوت وأبيات[١]».

والبيت سمي بيتًا؛ لأنه يبات فيه ليلًا[٢].

قال الراغب: «أصل البيت: مأوى الإنسان بالليل؛ لأنه يقال: بات: إذا أقام بالليل، كما يقال: ظل بالنهار، ثم قد يقال للمسكن: بيت من غير اعتبار الليل فيه، وجمعه: أبيات وبيوت، لكن البيوت بالمسكن أخص، والأبيات بالشعر»[٣].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفه ابن العربي بقوله: « كل ما علاك فأظلك فهو سقف، وكل ما أقلك فهو أرض، وكل ما سترك من جهاتك الأربع فهو جدار، فإذا انتظمت واتصلت فهو بيت»[٤].

وقال القرطبي: «البيت سمي بذلك؛ لأنها ذات سقف وجدار، وهي حقيقة البيتية، وإن لم يكن بها ساكن»[٥].

وعرفه إسماعيل حقي بقوله هي: «اسم مبنى مسقف مدخله من جانب واحد، بنى للبيتوتة سواء كان حيطانه أربعة أو ثلاثة»[٦].

وعرفه ابن عاشور بقوله: «البيت: اسم جنس للمكان المتخذ مسكنًا لواحد، أو عدد من الناس في غرض من الأغراض، وهو مكان من الأرض يحيط به ما يميزه عن بقية بقعته من الأرض ليكون الساكن مستقلًا به لنفسه، ولمن يتبعه فيكون مستقرًا له، وكنًا يكنّه من البرد، وساترًا يستتر فيه عن الناس، ومحطًا لأثاثه وشؤونه»[٧].

(١) مقاييس اللغة١/ ٣٢٤.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٤/ ٢٣٨.
(٣) المفردات ص١٥١.
(٤) أحكام القرآن ٣/ ١٤٨.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٣٢٥.
(٦) روح البيان ٤/ ٤٨٣.
(٧) التحرير والتنوير ١/ ٧٠٨.

البيوت في الاستعمال القرآني

ورد (البيت) في القرآن الكريم (٦٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
مفرد	٢٦	﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة:١٢٥]
جمع	٣٧	﴿أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾ [النور:٦١]

وجاءت البيوت في القرآن على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: المكان المعد للمبيت، ويشمل المنزل والخيمة وغيرها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١]. أي: منازل.

الثاني: المسجد: ومنه قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور:٣٦]. أي: مساجد.

الثالث: الكعبة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة:١٢٥]. أي: جعلنا الكعبة.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٣٤٧-٣٤٨.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ١٩٦-١٩٧، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٢٠٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ المنزل:

المنزل لغة:

موضع النزول، وهو الحلول، تقول: نزلت نزولًا ومنزلًا؛ ويطلق المنزل على المنهل والدار[١]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون:٢٩].

المنزل اصطلاحًا هو:

اسم لما يشتمل على بيوت وصحن مسقف ومطبخ ليسكنه الرجل بعياله[٢]، وهو عند الفقهاء دون الدار وفوق البيت، وأقله بيتان أو ثلاثة[٣].

الصلة بين البيت والمنزل:

أن البيت أخص من المنزل، والمنزل أعم من البيت.

٢ الدار:

الدار لغة:

المحل الذي يجمع البناء والعرصة، وهو من دار يدور؛ لكثرة حركات الناس فيها[٤]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأعراف:٩١].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس:٢٥].

الدار اصطلاحًا:

هو اسم لما اشتمل على بيوت ومنازل وصحن غير مسقف[٥].

الصلة بين البيت والدار:

أن الدار أشمل من البيت والمنزل لاشتمالها عليهما[٦].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٦٥٦، المصباح المنير، الفيومي١/ ٢٠٦، تاج العروس، الزبيدي ٣٠/ ٤٧٨.

(٢) انظر: أنيس الفقهاء، القونوي ص٧٨.

(٣) انظر: المغرب في ترتيب المعرب، الخورازمي ص٤٦١.

(٤) انظر: المحكم، ابن سيده ٩/ ٤١٨، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٩٨.

(٥) انظر: الكليات، الكفوي ص٢٣٩.

(٦) انظر: دستور العلماء، القاضي نكري٢/ ٦٩.

٢ المسكن:

المسكن لغة:

مكان السكنى، والموضع الذي يسكن فيه[١]، كما يطلق المسكن: على المنزل والبيت[٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ:١٥].

المسكن اصطلاحًا:

هو البيت سواء كان بناء، أم خيمة، أم غير ذلك[٣].

الصلة بين البيت والمسكن:

أن المسكن هو البيت الذي يسكن فيه الإنسان إلا أن المسكن فيه معنى الإقامة والاستيطان والاستقرار بالمكان[٤].

٤ المأوى:

المأوى لغة:

المكان[٥]، قال الجوهري: «المأوى كل مكان يأوي إليه شيء ليلاً أو نهارًا»[٦]، ومنه قوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [النجم:١٥].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات:٣٩].

المأوى اصطلاحًا:

هو كل مكان يأوي إليه شيء، ويكون ملجأ للشخص ومستراحًا يستريح إليه من الحر والبرد[٧].

الصلة بين البيت والمأوى:

أن البيت هو محل المأوى الذي يأوي إليه الإنسان ويجتمع شمله بمن أوى إليهم.

(١) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد٢/ ٨٥٦.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور١٣/ ٢١٢، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٦٧.
(٣) انظر: القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص٤٣.
(٤) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي وحامد قنيبي ص٤٢٩.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور١٤/ ٥٢، تاج العروس، الزبيدي ٣٧/ ١١٥.
(٦) انظر: الصحاح ٦/ ٢٢٧٤.
(٧) انظر: الكليات، الكفوي ص٨٠٣، روح المعاني، الألوسي ١١/ ١٣١.

٥ العمارة:

العمارة لغة:

نقيض الخراب: يقال: عمر أرضه: يعمرها عمارة، قال تعالى: ﴿وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [التوبة:١٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١٨].

إما من العمارة التي هي حفظ البناء، أو من العمرة التي هي الزيارة، أو من قولهم: عمرت بمكان كذا، أي: أقمت به[١].

وعمر المنزل بأهله عمرًا، وعمره أهله: إذا سكنوه، وأقاموا به، وعمرت الدار عمرًا أيضًا: بنيتها، والاسم العمارة بالكسر، والعمران: اسم للبنيان[٢].

العمارة اصطلاحًا:

هي اسم للبيت المؤلف من طبقات وشقق[٣].

الصلة بين البيت والعمارة:

أن العمارة اسم للبيت الواسع المكون من طوابق وشقق إلا أن فيه معنى حفظ البناء والإقامة فيه.

٦ الخراب:

الخراب لغة:

ضد العمارة، قال تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ [البقرة:١١٤][٤].

قال ابن فارس: «(خرب) الخاء والراء والباء أصل يدل على التثلم والتثقب، فالخربة: الثقبة، ومن الباب، وهو الأصل، الخراب: ضد العمارة»[٥].

الخراب اصطلاحًا:

هو ذهاب العمارة[٦].

---

(١) انظر: المفردات، الراغب ص٥٨٦.
(٢) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٢٩.
(٣) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي وحامد قنيبي ص٣٢١.
(٤) انظر: المفردات، الراغب ص٢٧٧.
(٥) مقاييس اللغة٢/ ١٧٤.
(٦) انظر: التوقيف، المناوي ص١٥٤.

الصلة بين البيوت والخراب:

أن الخراب هو نقيض البيوت وعمارتها والسكن فيها.

٧ الخواء:

الخواء في اللغة:

قال ابن فارس: «(خوى) الخاء والواو والياء أصل واحد يدل على الخلو والسقوط»[(١)]، وخوت الدار: تهدمت وسقطت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل:٥٢].

أي: خالية، كما قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج:٤٥]؛ أي: خالية، وقيل: ساقطة على سقوفها، وأرض خاوية: خالية من أهلها[(٢)].

الخواء اصطلاحًا:

سقوط البيوت وتهدمها بعد خلوها من سكانها الذين كانوا يعمرونها[(٣)].

الصلة بين البيوت والخواء:

أن الخواء صفة للبيوت الخالية من سكانها بسبب ما حل بها من عذاب، كما يلاحظ ذلك من الآيات التي ورد فيها لفظ: (خاوية)، قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩].

وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج:٤٥].

وقال سبحانه: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل:٥٢].

(١) مقاييس اللغة٢/ ٢٢٥.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور١٤/ ٢٤٥.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٩٠، فتح القدير، الشوكاني١/ ٣٢٠.

البيوت نعمة

من نعم الله تعالى على عباده أن جعل البيوت مكانًا للعبادة، ومكانًا للأمن ومكانًا للستر، وللراحة والاستقرار، ومكانًا للأكل والإدخار، وبيان ذلك في الفقرات الآتية:

أولًا: مكان للعبادة:

إن البيوت التي جعلها الله للعبادة على ثلاثة أنواع:

١ . البيت الحرام.

وهو مكان للعبادة حيث يجب على المسلم استقبال البيت الحرام في كل صلاة، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران:٩٦].

قال أبو جعفر الطبري: «ومعنى ذلك: إن أول بيت وضع للناس لعبادة الله فيه»(١).

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ قال: «كانت البيوت قبلة، ولكن كان أول بيت وضع لعبادة الله»(٢).

وقد أمر الله تعالى باستقبال البيت الحرام بقوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة:١٤٤].

والمعنى: «من أي مكان وبقعة شخصت فخرجت يا محمد، فول وجهك تلقاء المسجد الحرام، وهو شطره، وأينما كنتم أيها المؤمنون من أرض الله، فولوا وجوهكم في صلاتكم تجاهه وقبله وقصده»(٣).

كما أنه مكان لعبادة الحج قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧].

أي: ويجب الحج على المستطيع من هذه الأمة، واستطاعة السبيل إلى الشيء إمكان الوصول إليه، وتختلف الاستطاعة باختلاف الأشخاص، واختلاف البعد عن البيت والقرب منه(٤).

والمعنى: ولله على من استطاع من الناس حج البيت، أي: فرض واجب لله تعالى على من استطاع من أهل التكليف السبيل إلى حج بيته الحرام(٥).

٢ . المساجد.

إن المساجد بيوت ومكان للعبادة، قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ

(١) جامع البيان ٦/ ٢٢.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٧٠٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٩٩.
(٤) تفسير المراغي ٤/ ٩.
وانظر: جامع البيان، الطبري٦/ ٣٧، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٤٧٣.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٧، الوسيط، الواحدي ١/ ٤٦٧.

﴿فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النور:٣٦][1].

والبيوت المذكور في الآية هي: المساجد المخصوصة لله تعالى بالعبادة، وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾، أي: أذن الله أن تبنى، فيصلى فيها الصلاة المفروضة بالغدو والآصال بالبكر والعشايا[2].

٣. بيوت المؤمنين.

إن بيوت المؤمنين مكان للعبادة كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس:٨٧] يقول: واجعلوا بيوتكم مساجد تصلون فيها[3]، وقيل: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: صلوا في بيوتكم لتأمنوا من الخوف؛ لأنهم آمنوا على خوف من فرعون[4]، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: في بيوتكم، وفي ذلك دلالة على جواز كتم الصلاة عند الخوف، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بالنصرة في الدنيا، والجنة في العقبى[5].

كما أن الله تعالى أخبر عن حال عباده في بيوتهم، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان:٦٤].

أي: والذين يبيتون ساجدين قائمين لربهم، أي: يحيون الليل كله أو بعضه بالصلاة، وخص العبادة بالبيتوتة؛ لأن العبادة بالليل أخص وأبعد عن الرياء، وقال ابن عباس رضي الله عنه: من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجدًا قائمًا، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة:١٦].

وقوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات:١٧-١٨].

وقوله عز وجل: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر:٩][6].

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل الرجل من صلاته غير المفروضة في بيته شيئًا، فقد روى ابن عمر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(اجعلوا في بيوتكم من صلاتكم، ولا تتخذوها قبورًا)**[7].

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٥٣٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٩٢، الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٢١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٧١.
(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٣٠.
(٥) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٥٦.
(٦) انظر: تفسير المراغي ١٩/ ٣٧.
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب كراهية الصلاة في المقابر، رقم٤٣٢، ١/ ٩٤، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، رقم٧٧٧، ١/ ٥٣٨.

وروى زيد بن ثابت رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ حجرة قال: حسبت أنه قال من حصير- في رمضان، فصلى فيها ليالي، فصلى بصلاته ناس من أصحابه، فلما علم بهم جعل يقعد، فخرج إليهم فقال: **(قد عرفت الذي رأيت من صنيعكم، فصلوا أيها الناس في بيوتكم، فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة)**[1].

وفي هذه الأحاديث بيان بأن بيوت المؤمنين مكان للصلاة، وفيها أيضًا حث للصلاة في البيوت فيما عدا الفروض، فإنها تكون في المساجد من أجل الجماعة.

ثانيًا: مكان للأمن:

جعل الله تعالى البيوت مكانًا يأمن فيه الإنسان على نفسه وأهله وماله، وجعل لهذه البيوت حرمة لا يجوز دخولها إلا بإذن من صاحبها فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧﴾ [النور:٢٧].

وشرع الاستئذان لمن يزور أحدًا في بيته؛ لأن الناس اتخذوا البيوت للاستتار مما يؤذي الأبدان من حرٍّ وقرٍّ ومطرٍ، ومما يؤذي العرض والنفس من انكشاف ما لا يحب الساكن اطلاع الناس عليه، فإذا كان في بيته وجاءه أحد فهو لا يدخله حتى يصلح ما في بيته وليستر ما يحب أن يستره، ثم يأذن له أو يخرج له فيكلمه من خارج الباب[2].

وحكمة الاستئذان هي: توفير حرمة المسكن وحرية السكان، لذا قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أن الاستئذان خير وأفضل للطرفين، المستأذن وأهل البيت، فهو خير من الدخول فجأة، والمعنى: قد أنزل الله عليكم هذا الأدب، وأرشدكم إليه، لتتذكروا وتتعظوا، وتعملوا بالأصلح لكم، ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨﴾ [النور:٢٨] أي: فإن لم تجدوا في بيوت غيركم أحدًا يأذن لكم، فلا تدخلوها حتى يأذن لكم صاحب الدار، فلا يحل الدخول في هذه الحالة؛ لأنه تصرف في ملك الغير بغير إذنه؛ ولأن للبيوت حرمة، وهي محل السكن الخاص والطمأنينة الشخصية، والراحة والوداعة[3].

وقد أباح النبي صلى الله عليه وسلم حرمة من تطلع في بيوت الغير بغير إذن،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب صلاة الليل، رقم٧٣١، ١/ ١٤٧، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، رقم ٧٨١، ١/ ٥٣٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٩٦.

(٣) انظر: الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٧٤٤.

وأهدر كل جناية تقع عليه؛ لما أخرجه الشيخان في صحيحيهما، ففي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فخذفته بعصاة ففقأت عينه، لم يكن عليك جناح**)[1]، وفي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: (**من اطلع في بيت قوم من غير إذنهم، حل لهم أن يفقؤوا عينه**)[2].

وفي هذه الأحاديث دليل على أن البيوت مكان للأمن حيث يأمن فيها الإنسان على نفسه وحرمه وأهله، ولهذا فقد أباح النبي صلى الله عليه وسلم ورفع الجناح عن من تطلع في بيت غيره بغير إذن بأن يفقأ عين من يفعل ذلك، وأن ذلك هدر لا قصاص فيه، ولا دية.

والأمن في البيوت نعمة تستوجب الشكر؛ لما رواه سلمة بن عبيد الله بن محصن الخطمي، عن أبيه، وكانت له صحبة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(**من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا**)، وحِيزَت: جُمِعَت[3].

وقد جعل الله تعالى بيته الحرام مكانًا للأمن العام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة:١٢٥].

فقد استجاب الله دعوة خليله إبراهيم عليه السلام فجعل مكة المكرمة بلدًا آمنًا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة:١٢٦].

فجعل الله مكة المكرمة بلدًا آمنًا من الظلم والإغارات الواقعة على غيره، فكان الرجل يلقى قاتل أبيه فيه فلا يهيجه[4].

وقال تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران:٩٧].

أي: وأمن من دخله، والعرب جميعًا قد اتفقوا على احترامه وتعظيمه، فمن دخله أمن على نفسه من الاعتداء والإيذاء، ومن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب من اطلع في بيت قوم ففقئوا عينه، رقم ٦٩٠٢، ٩/ ١١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم النظر في بيت غيره، رقم ٢١٥٨، ٣/ ١٦٩٩.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الزهادة في الدنيا، رقم ٢٣٤٦، ٤/ ٥٧٤، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب القناعة، رقم ٤١٤١، ٢/ ١٣٨٧.
والحديث حسنه الترمذي، والألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم٦٠٤٢، ٢/ ١٠٤٤.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٤٩.

أن يسفك دمه أو تستباح حرماته ما دام فيه، وقد مضوا على ذلك الأجيال الطوال في الجاهلية على كثرة ما بينهم من الأحقاد والضغائن، واختلاف المنازع والأهواء، وقد أقر الإسلام هذا، وكل ذلك بفضل دعوة إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة:١٢٦]»[(١)].

والمعنى: ومن دخله كان آمنًا يعني: حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية، كما قال الحسن البصري وغيره: كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم، فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج، وعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ قال: من عاذ بالبيت أعاذه البيت، ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى، فإذا خرج أخذ بذنبه.

وقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ۝٤﴾ [قريش:٣-٤].

وحتى إنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها[(٢)].

ثالثًا: مكان للستر:

جعل الله تعالى البيوت مكانًا لستر العورات والحرمات، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل:٨٠].

أي: جعل لكم موضعًا تسكنون فيه أيام مقامكم، وقيل: معناه: جعل لكم من بيوتكم ما تسكن إليه أنفسكم من ستر العورة والحرم، فتهدأ فيه جوارحكم[(٣)].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ موضعًا تسكنون فيه، قال ابن عباس، ومجاهد: يعني: المساكن من الحجر والمدر يستر عوراتكم وحرمكم، وذلك أن الله خلق الخشب والمدر والآلة التي بها يمكن تسقيف البيوت وبناؤها، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ يعني: الأنطاع والأدم، بيوتًا يعني: القباب والخيام، ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ يخف عليكم حملها في أسفاركم، ومعنى الظعن: سير أهل البوادي لنجعة، أو حضور ماء، أو طلب مرتع، ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ قال مقاتل: لا تثقل عليكم في الحالتين[(٤)].

(١) انظر: تفسير المراغي ٤/ ٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٨.

(٣) انظر: الهداية، مكي بن أبي طالب ٦/ ٤٠٥٨.

(٤) انظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٧٦.

رابعًا: الراحة والاستقرار:

جعل الله تعالى البيوت مكانًا للراحة والاستقرار، وهذا ما يفيده معنى السكن الذي جعله الله تعالى في البيوت.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾ [النحل: ٨٠].

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويسترون بها، وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضًا من جلود الأنعام بيوتًا، أي: من الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر، ولهذا قال: ﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ بما يحقق لهم الراحة والاستقرار فيها في كلا الحالين[1].

قال سيد قطب: «والسكن والطمأنينة في البيوت نعمة لا يقدرها حق قدرها إلا المشردون الذين

لا بيوت لهم ولا سكن ولا طمأنينة، وذكرها في السياق يجيء بعد الحديث عن الغيب، وظل السكن ليس غريبًا عن ظل الغيب، فكلاهما فيه خفاء وستر، والتذكير بالسكن يمس المشاعر الغافلة عن قيمة هذه النعمة.

ونستطرد هنا إلى شيء عن نظرة الإسلام إلى البيت، بمناسبة هذا التعبير الموحي: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ فهكذا يريد الإسلام البيت مكانًا للسكينة النفسية والاطمئنان الشعوري، هكذا يريده مريحًا تطمئن إليه النفس وتسكن وتأمن سواء بكفايته المادية للسكنى والراحة، أو باطمئنان من فيه بعضهم لبعض، وبسكن من فيه كل إلى الآخر، فليس البيت مكانًا للنزاع والشقاق والخصام، إنما هو مبيت وسكن وأمن واطمئنان وسلام.

ومن ثم يضمن الإسلام للبيت حرمته، ليضمن له أمنه وسلامه واطمئنانه، فلا يدخله داخل إلا بعد الاستئذان، ولا يقتحمه أحد- بغير حق- باسم السلطان، ولا يتطلع أحد على من فيه لسبب من الأسباب، ولا يتجسس أحد على أهله في غفلة منهم أو غيبة، فيروع أمنهم، ويخل بالسكن الذي يريده الإسلام للبيوت، ويعبر عنه ذلك التعبير الجميل العميق!

ولأن المشهد مشهد بيوت وأكنان وسرابيل، فإن السياق يعرض من الأنعام جانبها الذي يتناسق مع مفردات المشهد: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٠٧.

﴿وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾ [النحل: ٨٠].

وهو هنا كذلك يستعرض من نعمة الأنعام ما يلبي الضرورات وما يلبي الأشواق، فيذكر المتاع، إلى جانب الأثاث، والمتاع ولو أنه يطلق على ما في الأرحال من فرش وأغطية وأدوات، إلا أنه يشي بالتمتع والارتياح»[(١)].

فهذه البيوت التي جعلها الله سكنًا للإنسان، يأوي إليها، ويجد فيها أنس النفس وروح الروح، بما يجتمع إليه فيها من زوج وولد.. أليس هذا من نعم الخالق ومن سابغات أفضاله؟ ثم هذه البيوت الخفيفة الحمل التي يتخذها الإنسان من جلود الأنعام، أو مما على جلودها من أصواف وأوبار وأشعار- أليست مما يسر الله للإنسان، ومكن له منها؟[(٢)].

خامسًا: مكان للأكل والادخار:

جعل الله تعالى البيوت مكانًا للأكل، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور: ٦١].

فالآية الكريمة قد أجازت الأكل من هذه البيوت المذكورة -وهي أحد عشر بيتًا- وإن لم يكن فيها أصحابها، ما دام الآكل قد علم رضا صاحب البيت بذلك، وأنه لا يكره هذا ولا يتضرر منه، استنادًا إلى القواعد العامة في الشريعة، والتي منها: (لا ضرر ولا ضرار)[(٣)]، وأنه (لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه)[(٤)][(٥)].

«قال سعيد بن المسيب: إن المسلمين كانوا إذا غزوا وخلفوا زمناهم، وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم، ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا. وكانوا يتحرجون من ذلك، وقالوا: لا ندخلها وهم غيب.

فنزلت هذه الآية رخصة لهم، ومعنى الآية: نفي الحرج عن الزمنى في أكلهم من بيت أقاربهم، أو بيت من يدفع إليهم المفتاح إذا خرج للغزو، وقوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٨٦.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٧/ ٣٣٦.

(٣) انظر: الأشباه والنظائر، ابن نجيم ص٧٢.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٠٦٩٥، ٣٤/ ٢٩٩، والبيهقي في السنن الكبرى، رقم ١٦٧٥٦، ٨/ ٣١٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٧٦٦٢، ٢/ ١٢٦٨.

(٥) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٥٦.

أي: ليس عليكم حرج أن تأكلوا من أموال عيالكم وأزواجكم، وبيت المرأة كبيت الرجل، وقال ابن قتيبة: أراد أن تأكلوا من بيوت أولادكم، فنسب بيوت الأولاد إلى الآباء، لأن الأولاد كسبهم وأموالهم كأموالهم»[(١)].

وذكر سبحانه بيوتهم هنا مع أنه من المعروف أنه لا حرج في أن يأكل الإنسان من بيته، للإشعار بأن أكلهم من بيوت الذين سيذكرهم سبحانه بعد ذلك من الآباء والأمهات والأقارب، يتساوى في نفي الحرج مع أكلهم من بيوتهم، أي: أن أكل الناس من بيوتهم لم يذكر هنا لنفي حرج كان متوهمًا، وإنما ذكر لإظهار التسوية بين أكلهم من بيوت أقاربهم وأصدقائهم، وبين أكلهم من بيوتهم[(٢)].

ثم ذكر سبحانه بيوتًا أخرى لا حرج عليهم في الأكل منها، فقال: ﴿بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور:٦١].

يعني: بيوت عبيدكم ومما يملكون، وذلك أن السيد يملك منزل عبده، والمفاتح معناها الخزائن، كقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام:٥٩][(٣)].

ويجوز أن تكون التي يفتح بها، وهذا قول عطاء، عن ابن عباس.

قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور:٦١] ما خزنتموه لغيركم، قال ابن عباس: يعني بذلك وكيل الرجل وقيمه في ضيعته، لا بأس عليه أن يأكل من ثمر حائطه، ويشرب من لبن ماشيته، قال عكرمة: إذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن، فلا بأس أن يطعم الشيء اليسير، وقال السدي: الرجل يولى طعام غيره يقوم عليه، فلا بأس أن يأكل منه[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور:٦١] معطوف على ما قبله والصديق هو من يصدق في مودتك، وتصدق أنت في مودته، وهو اسم جنس يطلق على الواحد والجمع، والمراد هنا: الجمع، أي: ولا حرج عليكم أيضًا في الأكل من بيوت أصدقائكم[(٥)]، والمعنى: ليس عليكم جناح أن تأكلوا من منازل أصدقائكم وأصحابكم إذا دخلتموها وإن لم يحضروا من غير أن تتزودوا وتحملوا[(٦)] إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك.

(١) الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٢٩.
(٢) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٥٦.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٢٩.
(٥) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٥٦.
(٦) انظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٢٩.

وقال قتادة: إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه[1].

وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور:٦١].

قال ابن كثير: «قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: وذلك لما أنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء:٢٩] قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل من الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكف الناس عن ذلك، فأنزل الله ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾.

وكانوا أيضًا يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره، فرخص الله لهم في ذلك، أن يأكلوا جميعا أو أشتاتًا، وقال قتادة: كان هذا الحي من بني كنانة يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده في الجاهلية، حتى إن كان الرجل ليسوق الذود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه، فأنزل الله ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعًا أو أشتاتًا، فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ومع الجماعة وإن كان الأكل مع الجماعة أبرك وأفضل»[2].

أما الادخار في البيوت:

جعل الله تعالى البيوت مكانًا للادخار وحفظ ما يحتاجه الإنسان في المستقبل، وذلك لأن مسكن الإنسان أعز البيوت عنده وأخفى لما يريد أن يخفيه، ومكان أمنه واستقراره فلا غرابة أن يكون مكان مدخراته، وهذه المدخرات لا يعلم بها إلا صاحبها[3]، ولهذا جعلها الله تعالى من معجزات سيدنا عيسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران:٤٩].

والمعنى: أن عيسى عليه السلام قد قال لقومه بنى إسرائيل: وإن من معجزاتي التي تدل على صدقي فيما أبلغه عن ربي أني أخبركم بالشيء الذي تأكلونه وبالشيء الذي تخبئونه في بيوتكم لوقت حاجتكم إليه[4].

والادخار هو: إعداد الشيء لوقت الحاجة إليه، ويقال: لا يعرف الادخار من المخلوقات إلا الإنسان والفأر والنمل، أما الحمار مثلًا مع قدرته على الحمل لا يحمل

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٧٩.
(٢) المصدر السابق.
وانظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٢٩.
(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٤/ ٤٠٦.
(٤) انظر: الوسيط، طنطاوي ٢/ ١١٥.

رزقه؛ لذلك تراه إن شبع لا يدخر شيئًا، وربما يدوس الأكل الباقي، أو يبول عليه، وكذلك كل الحيوانات[1].

(١) انظر: تفسير الشعراوي ١٨/ ١١٢٥١.

أنواع البيوت

إن البيوت المذكورة في القرآن الكريم على أنواع، منها: بيوت الله تعالى، وبيوت الأنبياء عليهم السلام، وبيوت المؤمنين، وبيوت الظالمين، وبيوت المخلوقات من غير بني آدم، وسيكون بيانها في المطالب الآتية:

أولًا: بيوت الله تعالى:

إن بيوت الله تعالى المذكورة في القرآن هي: البيت المعمور، والبيت الحرام، والمسجد الأقصى، وعامة المساجد، ويمكن بيانها بإجاز في الفقرات الآتية:

١. البيت المعمور.

من بيوت الله تعالى المذكورة في القرآن الكريم: البيت المعمور، وقد ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤﴾ [الطور:٤].

وفي البيت المعمور فيه قولان:

القول الأول: أنه بيت في السماء، وفي أي سماء هو؟ فيه ثلاثة أقوال:

أولًا: إنه في السماء السابعة، وهذا هو مذهب جمهور المفسرين[2]، وهو الصحيح، ويدل على ذلك ما رواه أنس

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٥٥، الوسيط، الواحدي٤/ ١٨٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٧/ ٣٩٨.

رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار، ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه)، قال: (فركبته حتى أتيت بيت المقدس)،...، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم صلى الله عليه وسلم مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه)[1].

ويدل عليه كذلك حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه في «الصحيحين» قال: «قال النبي صلى الله عليه وسلم: (بينا أنا عند البيت بين النائم، واليقظان فأتينا السماء السابعة، قيل من هذا؟ قيل: جبريل، قيل من معك؟ قيل: محمد، قيل: وقد أرسل إليه، مرحبًا به، ولنعم المجيء جاء، فأتيت على إبراهيم فسلمت عليه، فقال: مرحبًا بك من ابن ونبي، فرفع لي البيت المعمور، فسألت جبريل، فقال: هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم)[2].

ثانيًا: إنه في السماء السادسة، قاله علي رضي الله عنه[3].

ثالثًا: إنه في السماء الدنيا، روي عن ابن عباس رضي الله عنه، وقال: هو حيال الكعبة يحجه كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون فيه حتى تقوم الساعة، يسمى الضراح[4].

القول الثاني: أنه البيت الحرام، وعمارته بالحج والطواف، قاله الحسن[5].

ووصف هذا البيت بأنه معمور لكثرة غاشيته، وقاصديه[6].

قال الماوردي: «وفي ﴿ٱلْمَعْمُورِ﴾ وجهان: أحدهما: أنه معمور بالقصد إليه،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات، وفرض الصلوات، رقم ١٦٢، ١/ ١٤٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٢٠٧، ٤/ ١١١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات، وفرض الصلوات، رقم ١٦٢، ١/ ١٤٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٥٥، الوسيط، الواحدي ٤/ ١٨٤، تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٢٦٧، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٧٥.

(٤) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٢٦٧، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٧٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٦٠.

(٥) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٣٧٨، تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٢٦٧، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٧٥.

(٦) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٥٤.

والثاني: بالمقام عليه»[1].

وقال ابن كثير: «ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة: (ثم رفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفًا، لا يعودون إليه آخر ما عليهم)[2]، يعني: يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، كذلك ذاك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة، ولهذا وجد إبراهيم الخليل عليه السلام مسندًا ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه، والذي في السماء الدنيا يقال له: بيت العزة»[3].

ولعظمة هذا البيت فقد أقسم تعالى به مع ما ذكر في الآية من غيره من مخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة على أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم[4].

٢. البيت الحرام.

إن البيت الحرام هو: أول بيت وضع في الأرض، وأعظم المساجد وأفضلها، وأهم موضع في مكة، وهو اسم لمسجد الكعبة، وقد يمتد إلى حدود الحرم، وهو قبلة المسلمين، وإليه يحجون من كل فج عميق[5].

وقد ورد ذكر البيت في القرآن الكريم في عشرة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران:٩٦-٩٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة:١٢٥].

كما ورود بلفظ المسجد الحرام في القرآن الكريم في خمسة عشر موضعًا، منها قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة:١٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٧٨.
(٢) سبق تخريجه قريبًا.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٧٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٩٨.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٩٨.
(٥) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ١١٥، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٤٧٢، الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٥١.

﴿٢﴾ [المائدة:٢] وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء:١][(١)].

٣. المسجد الأقصى.

من بيوت الله تعالى: المسجد الأقصى، وهو بيت المقدس، وهو أولى القبلتين، ومسرى الرسول الكريم، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء:١].

وسمي الأقصى لبعد ما بينه وبين المسجد الحرام[(٢)] أو لأنه أبعد المساجد التي تزار، ويبتغى في زيارته الفضل بعد المسجد الحرام[(٣)].

وقد بارك الله حوله بالماء والأنهار والأشجار والثمار، قال مجاهد: سماه مباركًا؛ لأنه مقر الأنبياء، وفيه مهبط الملائكة والوحي، ومنه يحشر الناس يوم القيامة[(٤)].

وقد ذكر المسجد الأقصى في القرآن مرتين مرة باللفظ الصريح كما سبق في الآية السابقة والثانية بلفظ المسجد في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإسراء:٧].

والمعنى: وليدخلوا المسجد، أي: بيت المقدس كما دخلوه أول مرة، أي: في التي جاسوا فيها خلال الديار، وليتبروا أي: يدمروا ويخربوا ما علوا أي: ما ظهروا عليه تدميرًا[(٥)].

اختلف المفسرون في من بنى المسجد الأقصى؟ على قولين:

القول الأول: ذهب بعض المفسرين إلى أن أول من بناه هو إبراهيم عليه السلام ويدل على ذلك الحديث الذي رواه أبو ذر رضي الله عنه، قال: **قلت يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: (المسجد الحرام) قال: قلت: ثم أي؟ قال (المسجد الأقصى) قلت: كم كان بينهما؟ قال: (أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله، فإن الفضل فيه)**[(٦)]، وقدر بعض

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ١١٥، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٤٧٢، الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٥١.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٢٦، الوسيط، الواحدي ٣/ ٩٤.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٣٣.
(٤) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ٥٥.
(٥) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٤٥.
وانظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٨٨، النكت والعيون الماوردي ٣/ ٢٣١.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث

المفسرين أن ما بين إبراهيم وسليمان عليهما السلام من الزمان عشرة قرون[1].

القول الثاني: إن أول من بناه هو سليمان عليه السلام[2].

واستدلوا بما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أن سليمان بن داود صلى الله عليه وسلم لما بنى بيت المقدس سأل الله عز وجل خلالًا ثلاثة: سأل الله عز وجل حكمًا يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله عز وجل ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه)**[3].

الراجح: الجمع بين القولين فقد جمع بعض المفسرين بين القولين: بأن الذي بنى المسجد الأقصى هو إبراهيم عليه السلام لحديث أبي ذر السابق، وهو يدل على أنه قد كان بني أيضًا زمن إبراهيم أو إسحاق ويعقوب عليهما السلام، ولكن بنيانه على التمام وكمال الهيئة كان على عهد سليمان عليه السلام[4].

وهو أحد المساجد التي تشد إليها الرحال دون غيرها؛ لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسجد الأقصى)**[5].

٤. عامة المساجد.

أما عامة المساجد المنتشرة في بقاع الأرض فهي بيوت الله تعالى التي أمر بأن ترفع، ويذكر فيها اسمه، قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النور:٣٦].

قال الماوردي: «في هذه البيوت قولان: أحدهما: أنها المساجد، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد.

الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلا)، رقم٣٣٦٦، ٤/ ١٤٥، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم٥٢٠، ١/ ٣٧٠.

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية١/ ٤٧٤، البحر المحيط، أبو حيان٣/ ٢٦٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور١٥/ ١٦.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٣٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ١٦.

(٣) أخرجه النسائي في سننه، كتاب المساجد، فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه، رقم٦٩٣، ٢/ ٣٤.
والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم٢٠٩٠، ١/ ٤٢٠.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٧٤ البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٢٦٨ التحرير والتنوير، ابن عاشور١٥/ ١٦.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم١١٨٩، ٢/ ٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، رقم١٣٩٧، ٢/ ١٠١٤.

الثاني: أنها سائر البيوت، قاله عكرمة.

وفي قوله: ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ أربعة أوجه:

أحدها: أن تبنى، قاله مجاهد، كقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ [البقرة:١٢٧]. أي: يبني.

الثاني: أنها تطهر من الأنجاس والمعاصي، حكاه ابن عيسى.

الثالث: أن تعظم، قاله الحسن.

الرابع: أن ترفع فيها الحوائج إلى الله»[١].

كما ذكر الله تعالى هذه البيوت باسم المساجد في آيات، منها قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن:١٨].

فقد ذكر المفسرون أن المراد بالمساجد: بيوت الله التي وضعت للصلاة على أحد المعاني الواردة في الآية، قال قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم، أشركوا بالله، فأمر الله أن يخلص المسلمون له الدعوة إذا دخلوا مساجدهم، وقال سعيد بن جبير: المساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد، أي: أن هذه الأعضاء التي يقع السجود عليها مخلوقة لله، فلا يسجدوا عليها لغيره، وقال الحسن: أراد البقاع كلها، يعني: أن الأرض كلها مواضع للسجود، وجعلت مسجدًا لهذه الأمة[٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة:١٨].

وفي هذه المساجد قولان:

أحدهما: أنها مواضع السجود من المصلى، فعلى هذا عمارتها تحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: بالمحافظة على إقامة الصلاة.

والثاني: بترك الرياء.

والثالث: بالخشوع والإعراض عما ينهى.

والقول الثاني: أنها بيوت الله تعالى المتخذة لإقامة الصلوات.

فعلى هذا عمارتها تحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: إنما يعمرها بالإيمان من آمن بالله تعالى.

والثاني: إنما يعمرها بالزيارة لها والصلاة فيها من آمن بالله تعالى.

والثالث: إنما يرغب في عمارة بنائها من آمن بالله تعالى[٣].

وعمارة المساجد نوعان: حسية،

(١) النكت والعيون ٤/ ١٠٦.
وانظر: الوسيط، الواحدي٣/ ٣٢١.

(٢) الوسيط، الواحدي٤/ ٣٦٧.
وانظر: النكت والعيون، الماوردي٦/ ١١٩.

(٣) النكت والعيون، الماوردي٢/ ٣٤٧.

ومعنوية؛ فالحسية: بالتشييد والبناء والترميم والتنظيف والفرش والتنوير بالمصابيح والدخول إليها والقعود فيها، والمعنوية: بالصلاة وذكر الله والاعتكاف والزيارة للعبادة فيها، وذلك يشمل العمرة، ومن الذكر: درس العلم، بل هو أجله وأعظمه وصيانتها مما لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا، فضلًا عن فضول الحديث[1].

والمعنى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ أي: إنما يستحق عمارة المساجد وتستقيم منه العمارة، ويكون أهلًا لها من اتصف بالإيمان بالله تعالى إيمانًا صحيحًا، على النحو المبين في القرآن من الإقرار بوجود الله والاعتراف بوحدانيته، وتخصيصه بالعبادة، والتوكل عليه، وآمن باليوم الآخر الذي يحاسب الله فيه العباد، ويجزي فيه بالثواب للمحسنين وبالعقاب للمسيئين، وأقام الصلاة المفروضة على الوجه المستكمل لأركانها وشروطها وتدبر تلاوتها وأذكارها، وخشوع القلب لله وخشيته، وآتى الزكاة لمستحقيها المعروفين كالفقراء والمساكين وأبناء السبيل، ﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾ في قوله وعمله إلا الله وحده، دون غيره من الأصنام والعظماء الذين لا ينفعون ولا يضرون في الحقيقة، وإنما النفع والضر بيد الله. أما إنه لم يذكر الإيمان بالرسول فلأنه دل عليه ما ذكر من إقامة الصلاة وغيرها لأنه مما جاء به الرسول، فإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة إنما يصح من المؤمن بالرسول.

وهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات هم الذين يقتصر عليهم عمارة المساجد الحسية بالبناء والتشييد والترميم، والمعنوية بالعبادة والأذكار وحضور دروس العلم، فلا يعمر بيوت الله غيرهم، وهؤلاء هم الذين يرجى بحق أن يكونوا من المهتدين إلى الخير دائمًا، وإلى ما يحب الله ويرضيه، المستحقون الثواب على أعمالهم، لا أولئك المشركون الضالون الذين يجمعون بين الأضداد، فيشركون بالله ويكفرون بما جاء به رسوله، ويسجدون للطواغيت (الأصنام) ثم يقدمون بعض الخدمات للمسجد الحرام[2].

كما أن الله تعالى ذم من يسعى في خراب المساجد، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة:١١٤].

قال الرازي في تفسيرها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ «فإن ظاهرها يقتضي أن يكون الساعي في تخريب المساجد أسوأ حالًا من

(١) التفسير المنير، الزحيلي ١٠/ ١٣٥.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٠/ ١٣٨.

المشرك؛ لأن قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يتناول المشرك؛ لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

فإذا كان الساعي في تخريبه في أعظم درجات الفسق وجب أن يكون الساعي في عمارته في أعظم درجات الإيمان»[١].

وقد ورد ذكر بيوت الله التي هي المساجد في السنة النبوية، وذلك فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(من تطهر في بيته، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطوتاه إحداهما تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة)**[٢].

وفيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أيضًا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده)**[٣].

ثانيًا: بيوت الأنبياء:

ذكرت بيوت الأنبياء في سياقات متعددة، وسيتم الحديث أولًا عن بيوت النبي محمد صلى الله عليه وسلم ثم بيوت غيره من الأنبياء فيما يأتي:

١. بيوت النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

ذكر القرآن بيوت النبي محمد صلى الله عليه وسلم في سياقات مختلفة كما يأتي:

❁ في سياق الجهاد.

قال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝٥﴾ [الأنفال:٥].

والإخراج من البيت: هو الإخراج المعين الذي خرج به النبي صلى الله عليه وسلم غازيًا إلى بدر.

والمعنى: أن الله أمره بالخروج إلى المشركين ببدر أمرًا موافقًا للمصلحة في حال كراهة فريق من المؤمنين ذلك الخروج[٤].

❁ في سياق الآداب الواجبة معها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا

(١) مفاتيح الغيب ٤/ ١٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا، وترفع به الدرجات، رقم٦٦٦، ١/ ٤٦٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم٢٦٩٩، ٤/ ٢٠٧٤.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور٩/ ٢٦٣، وانظر: النكت والعيون، الماوردي٢/ ٢٩٥.

فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

[الأحزاب:٥٣].

وقد تضمنت الآية- فيما يتعلق بالبيوت- حكمين:

الحكم الأول: النهي عن دخول بيوت النبي صلى الله عليه وسلم في كل الأحوال إلا بالإذن لتناول طعام، غير منتظرين وقت نضجه، والمعنى: فيا أيها الذين آمنوا أو صدقوا بالله ورسوله لا تدخلوا بيتًا من بيوت النبي صلى الله عليه وسلم في كل الأحوال إلا بالإذن لتناول طعام، غير منتظرين وقت نضجه، فإذا نضج فادخلوا، إذا دعيتم، فإذا تناولتم الطعام فانتشروا في الأرض غير مستأنسين أو مشتغلين بلهو الحديث، إن دخولكم بيت النبي واشتغالكم بالحديث قبل نضج الطعام كان يؤذي النبي، وإيذاؤه حرام، وكان النبي يتضايق من ذلك، ويكره أن ينهاكم عن ذلك من شدة حيائه صلى الله عليه وسلم، والله لا يستحيي من بيان الحق، وهو الأمر بالخروج من البيت، ومنع البقاء فيه، وهذا أدب عام يشمل النبي صلى الله عليه وسلم وسائر المؤمنين[1].

الحكم الثاني: النهي عن النظر إلى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، والمعنى: فكما نهيتكم عن الدخول إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم من غير إذن، ودون انتظار نضج الطعام، كذلك نهيتكم عن النظر إلى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم فإذا طلبتم منهن شيئًا من الأمتعة، كالمواعين وسائر مرافق الدين والدنيا، فاطلبوه من وراء حجاب ساتر، وذلك الحجاب أطهر وأطيب للنفس، وأبعد عن الريبة، لقلوبكم وقلوبهن، من الهواجس ووساوس الشيطان.

وذلك لأنه لم يصح لكم أن تؤذوا رسول الله وتضايقوه، كالبقاء في منزله، والاشتغال بالحديث، وانتظار نضج الطعام، ويحرم عليكم أبدًا التزوج بنسائه بعد الفراق بموت أو طلاق، تعظيمًا له، إن إيذاء صلى الله عليه وسلم وزواج نسائه من بعده ذنب عظيم وإثم كبير، والبعد عن الإيذاء سرًّا وعلنًا مطلوب، فإنكم إن تظهروا شيئًا من الأذى أو تكتموه، فإن الله تام العلم به، يعلم السرائر والخفايا، والظواهر والأحوال كلها.

ثم استثنى الله من حكم حجاب أزواج النبي: المحارم، فلا إثم ولا حرج على

(١) الوسيط، الزحيلي٣/ ٢٠٨٢، وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ٣٩٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٧٠.

زوجات النبي صلى الله عليه وسلم في ترك الحجاب أمام الآباء والأبناء، بسبب النسب أو الرضاع، والإخوة وأبناء الإخوة والأخوات، وأمام النساء المؤمنات، والأرقاء من الذكور والإناث، بعدًا عن الحرج والمشقة في ذلك بسبب الخدمة، ودخل الأعمام في الآباء[1].

❁ في سياق ذكر أمهات المؤمنين.

قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب:٣٢-٣٤].

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي صلى الله عليه وسلم، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، فقال تعالى مخاطبًا لنساء النبي صلى الله عليه وسلم بأنهن إذا اتقين الله عز وجل كما أمرهن، فإنه لا يشبههن أحد من النساء ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ قال السدي وغيره: يعني بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال، ولهذا قال تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي: دغل ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قال ابن زيد: قولًا حسنًا جميلًا معروفًا في الخير، ومعنى هذا: أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أي: لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها[2].

وفي قوله تعالى: ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه عنى عليًّا وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم ، قاله أبو سعيد الخدري وأنس بن مالك وعائشة وأم سلمة رضي الله عنهم.

الثاني: أنه عنى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، قاله ابن عباس وعكرمة.

الثالث: أنها في الأهل والأزواج ، قاله الضحاك[3].

وقد اختلف الفقهاء والمفسرون في أهل البيت المذكورين في الآية على أقوال، والراجح والصحيح منها: أنهم الذين حرمت عليهم الصدقة، وهم: بنو هاشم، وبنو عبد المطلب، أو بنو هاشم خاصة، أو بنو هاشم ومن فوقهم إلى غالب؛ وهذا القول هو اختيار الجمهور والأكثرين من العلماء، ولا شك أن بعضهم أخص بكونه من آل

(١) الوسيط، الزحيلي٣/ ٢٠٨٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ٣٦٣.

(٣) النكت والعيون، الماوردي٤/ ٤٠١.

البيت من بعض، فعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين: أخص من غيرهم[1]، [2]، وكذلك زوجاته صلى الله عليه وسلم يدخلن دخولًا أوليًّا، قال ابن عطية: «والذي يظهر إلي أن زوجاته لا يخرجن عن ذلك البتة، فأهل البيت زوجاته وبنته وبنوها وزوجها، وهذه الآية تقضي أن الزوجات من أهل البيت؛ لأن الآية فيهن والمخاطبة لهن»[3].

وقال الشوكاني- بعد أن ذكر تلك الأقوال-: «أما الزوجات فلكونهن المرادات في سياق هذه الآيات، ولكونهن الساكنات في بيوته صلى الله عليه وسلم النازلات في منازله، ويعضد ذلك ما تقدم عن ابن عباس وغيره، وأما دخول علي وفاطمة والحسن والحسين فلكونهم قرابته وأهل بيته في النسب، ويؤيد ذلك ما ذكرناه من الأحاديث المصرحة بأنهم سبب النزول، فمن جعل الآية خاصة بأحد الفريقين فقد أعمل بعض ما يجب إعماله، وأهمل ما لا يجوز إهماله، وقد رجح هذا القول جماعة من المحققين منهم القرطبي، وابن كثير، وغيرهما»[4].

(١) انظر: الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٦٠، لباب التأويل، الخازن٤/ ٩٨، بيان المعاني، العاني٤/ ٣٧.
(٢) انظر في بقية الأقوال وأدلتها: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٨٤، فتح القدير، الشوكاني٤/ ٣٢٣.
(٣) المحرر الوجيز٤/ ٣٨٤.
(٤) فتح القدير٤/ ٣٢٣.

٢. بيوت غيره صلى الله عليه وسلم من الأنبياء.

❁ ذكر القرآن الكريم بيت نوح عليه السلام في سياق الدعاء.

قال تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح:٢٨].

فقد ذكر المفسرون في معنى بيتي المذكور في الآية: بيتي منزلي، وقيل: مسجدي، فيما قال ابن عباس وجمهور المفسرين، وقيل: سفينتي[5]. وقال ابن عباس أيضا: بيته: شريعته ودينه استعار لها بيتًا، كما يقال: قبة الإسلام، وفسطاط الدين[6].

❁ بيت إبراهيم عليه السلام.

قال سبحانه: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود:٧٣] يعني قالت الملائكة لسارة ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ معناه: لا تعجبي من ذلك، فإن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء، فإذا أراد شيئًا كان سريعًا ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ يعني: بيت إبراهيم عليه السلام، وهذا على معنى الدعاء من الملائكة لهم بالخير والبركة، وفيه دليل على أن أزواج

(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري٤/ ٦٢١.
(٦) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية٥/ ٣٧٧.

الرجل من أهل بيته ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ﴾ يعني: هو المحمود الذي يحمد على أفعاله كلها، وهو المستحق لأن يحمد في السراء والضراء والشدة والرخاء، فهو محمود على كل حال ﴿مَّجِيدٌ﴾ ومعناه: المنيع الذي لا يرام، وقال الخطابي: المجيد الواسع الكرم[1].

❁ ذكر القرآن الكريم بيت لوط عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات:٣٦].

أي: لوطًا عليه السلام وابنتيه[2]، وصفهم الله تعالى بالإيمان والإسلام جميعًا؛ لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم[3].

❁ بيت موسى وهارون عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس:٨٧].

وذلك حين منعهم فرعون الصلاة، فأمروا أن يجعلوا مساجدهم في بيوتهم، وأن يوجهوها نحو القبلة[4].

وقال الزجاج: صلوا في بيوتكم لتأمنوا من الخوف[5]، وقال عكرمة، عن ابن عباس: واجعلوا بيوتكم مساجد[6].

ثالثًا: بيوت المؤمنين:

ذكرت بيوت المؤمنين في سياقات متعددة يمكن بيانها فيما يأتي:

❁ في سياق الهجرة.

قال تعالى: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء:١٠٠].

❁ في سياق الأكل في البيوت.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النور:٦١].

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي٢/ ٤٥٧، لباب التأويل، الخازن٢/ ٤٩٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري١٥/ ٤٠٥.
(٣) انظر: الوسيط، الواحدي٤/ ١٧٨.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري١٥/ ١٧٥.
(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٣/ ٣٠.
(٦) الوسيط، الواحدي٢/ ٥٥٦.

❁ في سياق آداب دخول البيوت.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧﴾ [النور:٢٧].

رابعًا: بيوت الظالمين:

ذكر الله تعالى بيوت الظالمين في مقام التذكير بنعم الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾ [الأعراف:٧٤].

فقد ذكّر نبي الله صالح عليه السلام قومه بالنعم التي أنعم الله بها عليهم، والمعنى: أي وتذكروا نعم الله عليكم وإحسانه إليكم، إذ جعلكم خلفاء لعاد في الحضارة والعمران والقوة والبأس، وأنزلكم منازلهم تتخذون من سهولها قصورًا زاهية، ودورًا عالية، بما ألهمكم من حذق في الصناعة، فجعلكم تضربون اللّبن وتحرقونه آجرًا (الطوب المحرق) وتستعملون الجص، وتجيدون هندسة البناء ودقة النجارة، وتنحتون من الجبال بيوتًا، إذ علمكم صناعة النحت، وآتاكم القوة والجلد.

فقد كانوا يسكنون الجبال في الشتاء لما في البيوت المنحوتة من القوة، فلا تؤثر فيها الأمطار والعواصف، ويسكنون السهول في باقي الفصول للزراعة والعمل.

قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤].

أي: وتذكروا هذه النعم العظام، واشكروها له بتوحيده وإفراده بالعبادة، ولا تتصرفوا فيها تصرف كفران وجحود بفعل ما لا يرضي الله الذي خلقها لكم، فما بالكم بالكفر والعثي في الأرض بالفساد[1].

كما ذكر الله تعالى بيوت الظالمين في مقام العذاب الذي استحقته.

قال تعالى: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥٢﴾ [النمل:٥٢].

قال الطبري: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ﴾ فتلك مساكنهم خاوية خالية منهم، ليس فيها منهم أحد، قد أهلكهم الله فأبادهم ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ يقول تعالى ذكره: بظلمهم أنفسهم بشركهم بالله، وتكذيبهم رسولهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: إن في فعلنا بثمود ما قصصنا عليك يا محمد من القصة، لعظة لمن يعلم فعلنا بهم ما فعلنا، من قومك الذين يكذبونك فيما جئتهم به من عند ربك

(١) انظر: تفسير المراغي٨/ ١٩٩.

وعبرة»[1].

كما ذكر الله تعالى بيوت الظالمين في مقام تذكير المكذبين برسلهم وكيف كانت سنة الله تعالى فيمن كان قبلهم وسلك مسلكهم، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ [طه:١٢٨].

قال ابن جرير الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: أفلم يهد لقومك المشركين بالله، ومعنى يهد: يبين، يقول: أفلم يبين لهم كثرة ما أهلكنا قبلهم من الأمم التي سلكت قبلها التي يمشون في مساكنهم ودورهم، ويرون آثار عقوباتنا التي أحللناها بهم سوء مغبة ما هم عليه مقيمون من الكفر بآياتنا، ويتعظوا بهم، ويعتبروا، وينيبوا إلى الإذعان، ويؤمنوا بالله ورسوله، خوفًا أن يصيبهم بكفرهم بالله مثل ما أصابهم»[2].

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة:٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت:٣٨].

وقوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٥- ٤٦].

أي: إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاة من آمن بهم، لآيات وعبرًا ومواعظ ودلائل متناظرة تبين أخبار من تقدم كيف كان أمرهم[3].

كما ذكر الله تعالى بيوت الظالمين في مقام النفاق وأنها سبب للفرار من الجهاد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب:١٣].

وكذلك ذكر سبحانه بيوت الظالمين بأنها بيوت شهوات وانحلال وخيانة، كما ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف:٢٣].

وتشير الآية إلى أن اتباع الشهوات

(١) جامع البيان ١٩/ ٤٨٠.
(٢) جامع البيان ١٨/ ٣٩٧.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٣٢.

وارتكاب الخيانات في البيوت من الظلم، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: إنه تعالى لا يفلح الظالمين لأنفسهم والظالمين للناس بخيانة وتعد على الأعراض، لا في الدنيا ببلوغ الإمامة والرياسة، ولا فى الآخرة بالوصول إلى رضوان الله تعالى ودخول جنات النعيم[1].

خامسًا: بيوت المخلوقات:

إن بيوت المخلوقات من غير بني آدم المذكورة في القرآن هي:

١. بيوت العنكبوت.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾ [العنكبوت:٤١].

يقول تعالى ذكره: مثل الذين اتخذوا الآلهة والأوثان من دون الله أولياء يرجون نصرها ونفعها عند حاجتهم إليها في ضعف احتيالهم، وقبح رواياتهم، وسوء اختيارهم لأنفسهم، ﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ في ضعفها، وقلة احتيالها لنفسها، ﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ لنفسها، كيما يكنها، فلم يغن عنها شيئًا عند حاجتها إليه، فكذلك هؤلاء المشركون لم يغن عنهم حين نزل بهم أمر الله، وحل بهم سخطه أولياؤهم الذين اتخذوهم من دون الله شيئًا، ولم يدفعوا عنهم ما أحل الله بهم من سخطه بعبادتهم إياهم[2].

قال ابن كثير: «هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم، إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئًا، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع، فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها»[3].

٢. بيوت النحل.

قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ٦٨﴾ [النحل:٦٨].

وقوله: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾ [النحل:٦٨].

أي: خلايا، وهي الأمكنة التي يضع النحل فيها العسل، ويقال: إنما يضع العسل

(١) انظر: تفسير المراغي ١٢/ ١٣٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٥٢.

في أجواف الأشجار، وقد يضع على أغصان الأشجار، وقوله: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ يعني: يبنون، وقد جرت عادة أهلها أنهم يبنون لها الأماكن فهي تأوي إليها بتسخير الله إياها لذلك[1].

قال الرازي: في تفسير قوله: ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل:٦٨].

يقال: وحى وأوحى، وهو الإلهام، والمراد من الإلهام: أنه تعالى قرر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي تعجز عنها العقلاء من البشر، وبيانه من وجوه: الأول: أنها تبني البيوت المسدسة من أضلاع متساوية، لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها، والعقلاء من البشر لا يمكنهم بناء مثل تلك البيوت إلا بآلات وأدوات مثل المسطر والفرجار، والثاني: أنه ثبت في الهندسة أن تلك البيوت لو كانت مشكلة بأشكال سوى المسدسات فإنه يبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة، أما إذا كانت تلك البيوت مسدسة فإنه لا يبقى فيما بينها فرج ضائعة، فإهداء ذلك الحيوان الضعيف إلى هذه الحكمة الخفية والدقيقة اللطيفة من الأعاجيب، والثالث: أن النحل يحصل فيما بينها واحد يكون كالرئيس للبقية، وذلك الواحد يكون أعظم جثة من الباقي، ويكون نافذ الحكم على تلك البقية، وهم يخدمونه ويحملونه عند الطيران، وذلك أيضًا من الأعاجيب، والرابع: أنها إذا نفرت من وكرها ذهبت إلى موضع آخر، فإذا أرادوا عودها إلى وكرها ضربوا الطنبور والملاهي وآلات الموسيقى، وبواسطة تلك الألحان يقدرون على ردها إلى وكرها، وهذا أيضًا حالة عجيبة، فلما امتاز هذا الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والكياسة، وكان حصول هذه الأنواع من الكياسة ليس إلا على سبيل الإلهام، وهي حالة شبيهة بالوحي، لا جرم، قال تعالى في حقها: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النحل:٦٨][2].

النظرة العلمية: إن بعض العلماء الذين كرسوا جهودهم لدراسة حياة الحشرات وقفوا على حقائق عجيبة وألفوا مئات الكتب التى أثبتت صحة ما جاء في القرآن من أن هناك فصائل برية من النحل تسكن الجبال وتتخذ من مغاراتها مأوى لها، وأن منه سلالات تتخذ من الأشجار سكنًا بأن تلجأ إلى الثقوب الموجودة في جذوع الأشجار وتتخذ منها بيوتًا تأوي إليها، ولما أراد الإنسان أن ينتفع بعسل النحل استأنسها وصنع لها خلايا من الطين أو الخشب

(١) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ١٨٥.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٠/ ٢٣٦.

يعيش فيها، وهكذا تبين الآية الكريمة كيف كانت هذه الحشرات بإلهام من الله تأوى إلى مساكنها المختلفة منذ القدم إلى يومنا هذا[1].

٣. بيوت النمل.

قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل:١٧ - ١٩].

وقد ذكر الله تعالى بيوت النمل في سياق الملك العظيم الذي وهبه لنبيه سليمان عليه السلام، والمعنى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ يعني: في بيوتكم، ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ أي: لا يهلكنكم، ويقال: لا يكسرنكم سليمان وجنوده بأن يظلموكم، وإنما خاطبهم بقوله ﴿ادْخُلُوا﴾ بخطاب العقلاء؛ لأنه حكى عنهم ما يحكى عن العقلاء، ثم قال: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: قوم سليمان لا يشعرون بكم، ولو كانوا يشعرون بكم، لا يحطمونكم؛ لأنهم علموا أن سليمان ملك عادل لا بغي فيه ولا جور فيه، ولئن علم بها لم توطأ، ويقال: وهم لا يشعرون يعني: جنوده خاصة؛ لأنه علم أن سليمان يعلم بمكانه ويتعاهده ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ كما يكون ضحك الأنبياء عليهم السلام، وإنما ضحك من ثنائها على سليمان بعدله في ملكه، يعني: أنه لو شعر بكم لم يحطمنكم. ويقال: فتبسم ضاحكًا أي: متعجبًا ويقال: فرحًا بما أنعم الله تعالى عليه[2].

(١) القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم ص١٥١.

(٢) تفسير السمرقندي٢/ ٥٧٦.
وانظر: الهداية، مكي بن أبي طالب ٨/ ٥٣٨٦.

الخروج من البيت ابتغاء مرضاة الله

إن الهجرة والخروج من البيوت ابتغاء لمرضات الله تعالى يكون في أمور، منها: الهجرة، والجهاد في سبيل الله تعالى، والسفر المباح، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الهجرة:

الهجرة هي: الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام، وكانت فرضًا في أيام النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة، والتي انقطعت بالفتح: هي القصد إلى النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان، فإن بقي في دار الحرب، ولم يهاجر عصى[1].

وفي الهجرة ترك البيوت ابتغاء مرضاة الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء:١٠٠].

أي: إن من يهاجر فى سبيل الله، أي: لقصد رضاه وإقامة دينه كما يجب وكما يحب الله تعالى، يجد فى الأرض سبيلًا يرغم به أنوف من كانوا مستضعفين له، ومأوى يصيب فيه الخير والسعة فوق النجاة من الاضطهاد والذل، وفي هذا وعد للمهاجرين فى سبيله بتسهيل سبل العيش لهم وإرغامهم أعداءهم والظفر بهم[2].

كما وعد من يموت فى الطريق قبل وصوله دار الهجرة بالأجر العظيم الذي ضمنه له عز وجل إذا كان يقصد بهجرته رضا الله ونصرة رسوله فى حياته، وإقامة سننه بعد وفاته، وكان مستحقًّا لهذا الأجر ولو مات بعد أن تجاوز عتبة الباب ولو لم يصب تعبًا ولا مشقة، فإن نية الهجرة مع الإخلاص كافية لاستحقاقه له، كما في حديث عمر رضي الله عنه (**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**)[3].

وفى إبهام هذا الأجر وجعله حقًّا واجبًا عليه تعالى إيذان بعظم قدره وتأكيد ثبوته ووجوبه، ولله تعالى أن يوجب على نفسه ما يشاء، وليس لغيره أن يوجب عليه شيئًا، إذ لا سلطان فوق سلطانه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١٠٠]

أي: وكان شأن الله الغفران أزلًا وأبدًا لأمثال هؤلاء المهاجرين الذين دعاهم إيمانهم لترك أوطانهم لإقامة دينه واتباع سبيله، والرحمة

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٦/ ٦٠٠.

(٢) تفسير المراغي ٥/ ١٣٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم١، ١/ ٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنية»، رقم١٩٠٧، ٣/ ١٥١٥.

الشاملة لهم بعطفه وإحسانه[١].

واختلف المفسرون في معنى المراغم المذكورة في الآية: فقال بعضهم: هو التحول من أرض إلى أرض، وقال آخرون: مبتغى معيشة، وقال آخرون: المراغم، المهاجر[٢]، وقال مجاهد: المرغم: المتزحزح، وقال الكسائي: المراغم: المذهب.

قال أبو جعفر النحاس: «وهذه الأقوال متفقة المعاني فالمراغم هو المذهب والمتحول في حال هجرة، وهو اسم للموضع الذي يراغم فيه، وهو مشتق من الرغام، ورغم أنف فلان، أي: لصق بالتراب، وراغمت فلانًا هجرته وعاديته»[٣].

أما السعة فقال أبو جعفر بعد أن ذكر أقوال المفسرين في معنى السعة: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أن من هاجر في سبيله يجد في الأرض مضطربًا ومتسعًا، وقد يدخل في«السعة»، السعة في الرزق، والغنى من الفقر، ويدخل فيه السعة من ضيق الهم والكرب الذي كان فيه أهل الإيمان بالله من المشركين بمكة، وغير ذلك من معاني(السعة)، التي هي بمعنى الروح والفرج من مكروه ما كره الله للمؤمنين بمقامهم بين ظهري المشركين وفي سلطانهم. ولم يضع الله دلالة على أنه عنى بقوله:(وسعة)، بعض معاني(السعة) التي وصفنا، فكل معاني(السعة) التي هي بمعنى الروح والفرج مما كانوا فيه من ضيق العيش، وغم جوار أهل الشرك، وضيق الصدر بتعذر إظهار الإيمان بالله وإخلاص توحيده وفراق الأنداد والآلهة، داخل في ذلك»[٤].

والهجرة ابتغاء مرضات الله تعالى هي سنة النبيين عليهم، فقد هاجر نبي الله إبراهيم ولوط عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦ ﴾ [العنكبوت:٢٦].

فقد خرج إبراهيم عليه السلام من أرض العراق مهاجرًا إلى ربه، وخرج معه لوط عليه السلام وسارة، فخرج يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادة الله حتى نزل حران من دمشق، فمكث بها ما شاء الله أن يمكث، ثم خرج منها مهاجرًا حتى قدم مصر، ثم خرج من مصر إلى الشام ونزل بلاد السبع من أرض فلسطين، ونزل لوط عليه السلام بالمؤتفكة، وهي من السبع على مسيرة يوم وليلة وأقرب من ذلك، فبعثه الله سبحانه نبيًا[٥].

يقول تعالى مخبرًا عن إبراهيم أنه آمن له

(١) تفسير المراغي ٥/ ١٣٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ٩/ ١١٩.
(٣) إعراب القرآن، النحاس ١/ ٢٣٥.
(٤) جامع البيان ٩/ ١٢٢.
(٥) الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ٢٨٣.

لوط عليه السلام، يقال: إنه ابن أخي إبراهيم عليه السلام، ولم يؤمن به، من قومه سواه وسارة امرأة إبراهيم الخليل، ثم أخبر عنه عليه السلام بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين به، الحكيم في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية[1].

وكذلك فعل نبي الله موسى عليه السلام فقد خرج من مصر، خائفًا يترقب، أي: ينتظر الطلب، قال: رب نجني من القوم الظالمين الكافرين، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص:٢١-٢٢].

أي: سلك الطريق التي يلقى مدين[2] فيها، وكانت مدين على مسيرة ثمانية أيام من مصر ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص:٢٢].

أي: قصد الطريق إلى مدين[3].

والهجرة بترك البيوت هي كذلك سنة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة:٤٠].

وفي الآية إخبار بهجرة رسول إلى المدينة وتركه مكة وبيته فيها ابتغاء مرضات الله تعالى.

والمعنى: إلا تنصروه أي: تنصروا رسوله فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين في عام الهجرة لما همّ المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم هاربًا بصحبة صديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم، ثم يسيروا نحو المدينة، فجعل أبو بكر رضي

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ٢٤٦.

(٢) مدين: اسم بلاد ذكر في القرآن، وكانت تمثل إقليمًا كبيرًا وواسعًا، وكانت تقع في شمال غرب الجزيرة العربية بين تبوك والبحر الأحمر، وتعرف اليوم باسم: البدع، وهي بلدة بين تبوك وساحل البحر الأحمر على بعد١٣٢كيلًا غرب تبوك، وشرق رأس الشيخ حميد، على البحر، بمسافة٧٠كيلًا، وهي تابعة لمنطقة تبوك التي تقع شمال غرب المملكة العربية السعودية.
انظر: معجم المعالم الجغرافية، عاتق البلادي ص٢٨٤، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، سامي الملغوث ص ١٣٩.

(٣) معالم التنزيل، البغوي٣/ ٥٢٨.

الله عنه يجزع أن يطلع عليهم أحد فيخلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أذى، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يسكنه ويثبته ويقول: (يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما)[1][2].

ثانيًا: الجهاد:

إن في الجهاد تركًا للبيوت ابتغاء مرضات الله تعالى، كما قال تعالى عن رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾ [الأنفال:٥].

وفي قوله عز وجل: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ قولان:

أحدهما: كما أخرجك ربك من مكة إلى المدينة بالحق مع كراهة فريق من المؤمنين، كذلك ينجز وعدك في نصرك على أعدائك بالحق.

والثاني: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ﴾ من المدينة إلى بدر بالحق، كذلك جعل لك غنيمة بدر بالحق.

وفي قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ وجهان:

أحدهما: أنك خرجت ومعك الحق.

الثاني: أنه أخرجك بالحق الذي وجب عليك.

﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: كارهون خروجك.

الثاني: كارهون صرف الغنيمة عنهم؛ لأنهم لم يعلموا أن الله تعالى قد جعلها لرسوله صلى الله عليه وسلم[3].

وقد أمر الله تعالى بالخروج من البيوت والمنازل للجهاد الواجب وتوعد من لم يخرج بالعذاب الأليم والاستبدال بقوم يخرجون للجهاد.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٣٩﴾ [التوبة:٣٨- ٣٩].

وهذه الآية حث من الله جل ثناؤه المؤمنين به من أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم على الجهاد وغزو الروم، وذلك غزوة رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك، والمعنى: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ﴿مَا لَكُمۡ﴾، أي: شيء أمركم ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: إذا قال

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم٢٣٨١، ٤/ ١٨٥٤، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٣٦.

(٣) النكت والعيون، الماوردي٢/ ٢٩٥.

لكم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿انفِرُوا﴾، أي: اخرجوا من منازلكم إلى مغزاكم، وأصل النفر، مفارقة مكان إلى مكان لأمر هاجه على ذلك[1].

وقد أمر الله تعالى بالخروج من البيوت للجهاد في كل الأحوال والظروف.

قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٤١].

قوله: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: شيبًا وشبانًا[2]، وموسرين ومعسرين، خفت عليكم الحركة أو ثقلت، ركبانًا ومشاة[3].

قال الإمام البغوي: «قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، قال الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة وعكرمة: شبانًا وشيوخًا، وعن ابن عباس: نشاطًا وغير نشاط، وقال عطية العوفي: ركبانًا ومشاة، وقال أبو صالح: خفافًا من المال، أي: فقراء، وثقالًا أي: أغنياء، وقال ابن زيد: الثقيل الذي له الضيعة، فهو ثقيل يكره أن يضيع ضيعته، والخفيف الذي لا ضيعة له، ويروى عن ابن عباس قال: خفافًا أهل الميسرة من المال وثقالًا أهل العسرة، وقيل: خفافًا من السلاح، أي: مقلين منه، وثقالًا أي: مستكثرين منه، وقال الحكم بن عتيبة: مشاغيل وغير مشاغيل، وقال مرة الهمداني: أصحاء ومرضى، وقال يمان ابن رباب عزابًا ومتأهلين، وقيل: خفافًا من حاشيتكم وأتباعكم، وثقالًا مستكثرين بهم، وقيل: خفافًا مسرعين خارجين ساعة سماع النفير، وثقالًا بعد التروي فيه والاستعداد له»[4].

ثم بين سبحانه شرط الخروج من البيوت للجهاد الذي يقصد به ابتغاء مرضات الله بأن لا يتخذ الخارجون أعداء الله تعالى أولياء.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: ١].

وجواب الشرط في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه أي: إن كنتم -أيها المؤمنون- قد خرجتم من مكة من أجل الجهاد في سبيلي، ومن أجل طلب مرضاتي، فاتركوا اتخاذ عدوي وعدوكم أولياء، واتركوا مودتهم ومصافاتهم.

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٥١.
(٢) المصدر السابق ١٤/ ٢٦٢.
(٣) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٤٤٩.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٥٣.

فالمقصود من الجملة الكريمة: زيادة التهييج للمؤمنين، حتى لا يبقى في قلوبهم أي شيء من المودة نحو الكافرين[1].

ثم بين سبحانه موقف المنافقين من الخروج للجهاد بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة:٤٢-٤٣].

والعرض كل ما عرض لك من منافع الدنيا، فالمعنى: لو كانت غنيمة قريبة، أي: لو كان ما دعوا إليه غنمًا، ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: سهلًا قريبًا لاتبعوك ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾، أي: بعدت عليهم الغاية التي تقصدها، وكان هذا حين دعوا إلى غزوة تبوك، فثقل عليهم الخروج إلى نواحي الشام[2].

والمعنى: لو كان ما دعوا إليه عرضًا قريبًا غنيمة قريبة، وسفرًا قاصدًا قريبًا هينًا، لاتبعوك طمعًا في المال ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ [التوبة:٤٢].

المسافة، وقال الكلبي: يعني: السفر إلى الشام، والشقة السفر البعيد؛ لأنه يشق على الإنسان، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ يعني المنافقين إذا رجعتم إليهم: ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة:٤٢] أي: لو قدرنا وكان لنا سعة في المال، يهلكون أنفسهم بالكذب والنفاق، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة:٤٢]؛ لأنهم كانوا يستطيعون الخروج وكانوا مياسير، ذوي زاد وسلاح وعدة، قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٣][3].

ثم قال سبحانه: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة:٤٦-٤٧].

أي: إن المنافقين لو أرادوا الجهاد لتأهبوا أهبة السفر، فتركهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلف ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ أي: خروجهم معك ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي: حبسهم عنك وخذلهم، لأنهم قالوا: إن لم يؤذن لنا في الجلوس أفسدنا وحرضنا على المؤمنين، ويدل على هذا أن بعده: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ قيل: هو من قول بعضهم

(١) الوسيط، طنطاوي ١٤/ ٣٢٣.
(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٤٤٩.
(٣) الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٠٠.

لبعض، وقيل: هو من قول النبي صلى الله عليه وسلم، ويكون هذا هو الإذن الذي تقدم ذكره، قيل: قاله النبي صلى الله عليه وسلم غضبًا فأخذوا بظاهر لفظه وقالوا: قد أذن لنا، وقيل: هو عبارة عن الخذلان، أي: أوقع الله في قلوبهم القعود، ومعنى: ﴿مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ أي: مع أولي الضرر والعميان والزمنى والنسوان والصبيان[1].

ثم ذكر الحكمة في ذلك، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: نقصًا، ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ أي: ولسعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرقوا جماعتكم المجتمعين: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: هم حريصون على فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم. ﴿وَفِيكُمْ﴾ أناس ضعفاء العقول ﴿سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي: مستجيبون لدعوتهم يغترون بهم، فإذا كانوا هم حريصين على خذلانكم، وإلقاء الشر بينكم، وتثبيطكم عن أعدائكم، وفيكم من يقبل منهم ويستنصحهم. فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين، والنقص الكثير منهم، فلله أتم الحكمة حيث ثبطهم ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم، ولطفًا من أن يداخلهم ما لا ينفعهم، بل يضرهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيعلم عباده كيف يحذرونهم، ويبين لهم من المفاسد الناشئة من مخالطتهم[2].

وهؤلاء قال تعالى عنهم: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [التوبة:٨٣].

يقول تعالى آمرًا لرسوله صلى الله عليه وسلم، ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: ردك الله من غزوتك هذه ﴿إلى طائفة منهم﴾ قال قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلًا ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أي: معك إلى غزوة أخرى ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ أي: تعزيرًا لهم وعقوبة، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠][3].

وقوله تعالى: ﴿فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ يعني: مع المتخلفين من النساء والصبيان، وقيل: مع المرضى والزمنى، وقال ابن عباس رضي الله عنه: مع الذين تخلفوا بغير عذر، وقيل: مع المخالفين يقال: صاحب خالف إذا كان مخالفًا كثير الخلاف.

وفي الآية دليل على أن الرجل إذا ظهر منه مكروه وخداع وبدعة يجب الانقطاع

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي٨/ ١٥٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٣٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٤/ ١٦٩.

عنه وترك مصاحبته؛ لأن الله سبحانه وتعالى منع المنافقين من الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجهاد، وهو مشعر بإظهار نفاقهم وذمهم وطردهم وإبعادهم؛ لما علم من مكرهم وخداعهم إذا خرجوا إلى الغزوات[1].

ثالثًا: السفر:

في السفر ترك للبيوت، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ [النساء:١٠١].

والضرب في الأرض هو السفر، قال الله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المزمل:٢٠][2].

قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أي: تخففوا فيها إما من كميتها بأن تجعل الرباعية ثنائية، كما فهمه الجمهور من هذه الآية، واستدلوا بها على قصر الصلاة في السفر على اختلافهم في ذلك، فمن قائل: لا بد أن يكون سفر طاعة من جهاد، أو حج، أو عمرة، أو طلب علم، أو زيارة، وغير ذلك، كما هو مروي عن ابن عمر وعطاء ويحيى عن مالك في رواية عنه نحوه، لظاهر قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

ومن قائل: لا يشترط سفر القربة، بل لا بد أن يكون مباحًا، لقوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣].

كما أباح له تناول الميتة مع الاضطرار بشرط أن لا يكون عاصيًا بسفره، وهذا قول الشافعي وأحمد وغيرهما من الأئمة[3].

وهناك أسفار فيها ترك البيوت ابتغاء مرضات الله تعالى يمكن ذكرها بإيجاز فيما يأتي:

أولًا: سفر العلم، وهو مشهور لدى العلماء؛ لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة[4].

ثانيًا: سفر الحج والعمرة، وسفر الحج واجب على المستطيع، وهو من فروض العين[5]، وسفر العمرة مندوب[6].

ثالثًا: سفر الكسب والمعاش: فقد يتعذر على الرجل معاشه مع الإقامة، فيخرج في طلبه لا يزيد عليه، ولا ينقص من صيد أو احتطاب أو احتشاش أو استئجار، وهو فرض عليه[7]، وهو جائز إذا أراد التوسع

(١) لباب التأويل، الخازن٢/ ٣٩١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير١/ ٥٤٢.
(٣) المصدر السابق٢/ ٣٤٨.
(٤) أحكام القرآن، ابن العربي١/ ٦١٣، بيان المعاني، عبد القادر العاني٤/ ٥٠٠.
(٥) بيان المعاني، عبد القادر العاني٤/ ٥٠٠.
(٦) أحكام القرآن، ابن العربي١/ ٦١٣.
(٧) المصدر السابق١/ ٦١٣.

بأكثر مما هو فيه، وواجب إذا كان محتاجًا له لنفسه أو لمن يعوله[١].

رابعًا: سفر التجارة والكسب الزائد على القوت، وذلك جائز بفضل الله سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨]. أي: التجارة في البيع والشراء[٢]، يعني التجارة، وهي نعمة من الله بها في سفر الحج، فكيف إذا انفردت[٣].

خامسًا: سفر الزيارة: وسفر الزيارة إما يكون للإخوان في الله[٤].

ومن الترغيب فيه روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: **(أن رجلًا زار أخا له في قرية أخرى، فأرصد الله له، على مدرجته، ملكًا فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربّها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل، قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه)**[٥][٦].

ومنه قصد البقاع الكريمة، وهو مطلوب لثلاث أمكان، لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسجد الأقصى)**[٧][٨].

(١) بيان المعاني، عبد القادر العاني ٤/ ٥٠٠.
(٢) جامع البيان، الطبري ٤/ ١٦٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٥١. وانظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ١/ ٣٧٤.
(٤) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٦١٣.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب في فضل الحب في الله، رقم٢٥٦٧، ٤/ ١٩٨٨.
(٦) بيان المعاني، عبد القادر العاني ٤/ ٥٠٠.
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم١١٨٩، ٢/ ٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، رقم١٣٩٧، ٢/ ١٠١٤.
(٨) بيان المعاني، عبد القادر العاني ٤/ ٥٠٠. وانظر: أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٦١٢.

آداب دخول البيوت

هناك آداب لدخول البيوت سواء أكانت بيوت الله تعالى، أو بيوت النبي صلى الله عليه وسلم أو بيوت سائر المخلوقات من الإنس والجن، كما سيأتي توضيح ذلك في المطالب الآتية:

أولًا: آداب بيوت الله تعالى:

١. يستحب لدخول بيوت الله تعالى الطهارة، وأخذ الزينة عند كل مسجد.

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الأعراف:٣١][١].

قال الزمخشري: «﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾ أي: ريشكم ولباس زينتكم عند كل مسجد، كلما صليتم أو طفتم، وكانوا يطوفون عراة، وعن طاوس: لم يأمرهم بالحرير والديباج، وإنما كان أحدكم يطوف عريانًا ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهي عليه، ضرب وانتزعت عنه؛ لأنهم قالوا: لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها»[٢].

وقال أبو حيان: «والذي يظهر أن الزينة هو ما يتجمل به ويتزين عند الصلاة، ولا يدخل فيه ما يستر العورة؛ لأن ذلك مأمور به مطلقًا»[٣].

أما الطهارة: فإنها من آداب دخول بيوت الله تعالى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: **(من تطهر في بيته، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فيه فريضة من فرائض الله كانت خطواته إحداها تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة)**[٤]، ما لم يكن الدخول للصلاة أو الطواف بالبيت الحرام، فإنها تكون واجبة.

٢. التيمن في دخول المسجد.

من آداب دخول بيوت الله تعالى أن يدخل على السنة الواردة في دخولها، فقد أخرج البخاري في ذلك قوله: «وكان ابن عمر رضي الله عنه - عند دخول المسجد - يبدأ برجله اليمنى، فإذا خرج بدأ برجله اليسرى، فيه: عائشة رضي الله عنها قالت: **(كان النبي يحب التيمن ما استطاع في شأنه كله في طهوره، وترجله، وتنعله)**»[٥].

٣. الدعاء عند الدخول في المسجد والخروج منه.

عن أبي حميد، أو عن أبي أسيد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إذا**

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٢٩.
(٢) الكشاف ٢/ ١٠٠.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤١.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا، وترفع به الدرجات، رقم٦٦٦، ١/ ٤٦٢.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التيمن في دخول المسجد وغيره، رقم٤٢٦، ١/ ٩٣.

دخل أحدكم المسجد، فليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج، فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك)[1].

٤. تحية المسجد.

يستحب لداخل بيوت الله تعالى أن يركع ركعتين تحية المسجد قبل أن يجلس، وذلك لما رواه أبو قتادة السلمي رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس)**[2].

والقول بذلك هو مذهب الشافعي وأحمد والجمهور، وذهب قوم مالك والثوري وأصحاب الرأي إلى أنه يجلس ولا يصلي[3]، والراجح هو مذهب الجمهور لحديث أبي قتادة السابق فهو نص في المسألة.

أما تحية المسجد الحرام فقد ذكر ابن القيم أن تحية المسجد الحرام الطواف؛ لأنه صلى الله عليه وسلم بدأ فيه بالطواف[4]، وتعقب بأنه صلى الله عليه وسلم لم يجلس، إذ التحية إنما تشرع لمن جلس، والداخل إلى المسجد الحرام يبدأ بالطواف، ثم يصلي صلاة المقام، فلا يجلس إلا وقد صلى، فأما لو دخل المسجد الحرام، وأراد القعود قبل الطواف، فإنه يشرع له أن يصلي التحية[5].

والطواف بالبيت ورد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج:٢٩].

ومما يؤيد ما ذهب إليه ابن القيم من أن الطواف هو تحية المسجد الحرام ما رواه ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(الطواف بالبيت صلاة، إلا أن الله عز وجل قد أحل فيه المنطق، فمن نطق فلا ينطق إلا بخير)**[6].

٥. عدم رفع الصوت في المسجد.

من آداب دخول بيوت الله تعالى: عدم رفع الصوت في المسجد بغير الذكر، فقد ورد ما يدل على كراهة ذلك فيما رواه السائب بن يزيد رضي الله عنه، قال: كنت قائمًا في المسجد فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: **اذهب فأتني بهذين، فجئته بهما، قال: من**

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يقول إذا دخل المسجد، رقم٧١٣، ١/ ٤٩٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس، رقم٤٤٤، ١/ ٩٦.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٥.
(٤) زاد المعاد ٢/ ٢٠٨.
(٥) نيل الأوطار، الشوكاني ٣/ ٨٥.
(٦) أخرجه أحمد في مسنده ، رقم١٥٤٢٣، ٢٤/ ١٤٩، والنسائي في سننه، كتاب مناسك الحج، باب إباحة الكلام في الطواف، رقم٢٩٢٢، ٥/ ٢٢٢.
والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم٣٩٥٤، ٢/ ٧٣٣.

أنتما- أو من أين أنتما؟ - قالا: من أهل الطائف، قال: (لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم)[1].

وفيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(من سمع رجلًا ينشد ضالة في المسجد فليقل: لا أداها الله إليك، فإن المساجد لم تبن لهذا)[2].

٦. المحافظة على نظافة المسجد.

إن المحافظة على نظافة بيوت الله تعالى من البصاق والروائح الكريهة وغيرها من آداب الداخل إليها؛ لما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:(البزاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها)[3].

وكذلك ما رواه ابن عمر رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في غزوة خيبر: (من أكل من هذه الشجرة -يعني: الثوم- فلا يقربن مسجدنا)[4].

ثانيًا: آداب دخول بيت النبوة:

ذكر الله تعالى آداب دخول بيت النبوة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب:٥٣].

وهذه الآداب يمكن إجمالها فيما يأتي:

١. النهي عن دخول بيوت النبي صلى الله عليه وسلم إلا إذا كانت الدعوة لطعام غير منتظرين إدراكه ونضجه.

والمعنى: أيها الذين آمنوا بالله ورسوله لا تدخلوا بيوت نبيه صلى الله عليه وسلم إلا أن تدعوا إلى طعام تطعمونه فلا تدخلوا البيت إلا إذا علمتم أن الطعام قد تم نضجه، وانتهى إعداده، إذ قبل ذلك يكون أهل البيت فى شغل عنكم، وقد يلبسن ثياب البذلة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب رفع الصوت في المساجد، رقم٤٧٠، ١/ ١٠١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن نشد الضالة في المسجد وما يقوله من سمع الناشد، رقم ٥٦٨، ١/ ٣٩٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب كفارة البزاق في المسجد، رقم٤١٥، ١/ ٩١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما جاء في الثوم النيء والبصل والكراث، رقم ٨٥٣، ١/ ١٧٠.

والعمل فلا يحسن أن ترونهن وهن على هذه الحال، إلى أنه ربما بدا من إحداهن ما لا يحل النظر إليه[1].

٢. الانتشار بعد الطعام.

والمعنى: ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي: ولكن إذا دعاكم الرسول صلى الله عليه وسلم فادخلوا البيت الذي أذن لكم بدخوله، فإذا أكلتم الطعام الذي دعيتم إلى أكله فتفرقوا واخرجوا ولا تمكثوا فيه لتتبادلوا ألوان الحديث وفنونه المختلفة.

وعلة ذلك ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: إن ذلك اللبث والاستئناس والدخول على هذا الوجه كان يؤذى النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه كان يمنعه من قضاء بعض حاجاته، إلى ما فيه من تضييق المنزل على أهله، لكنه كان يستحيي من إخراجكم ومنعكم مما يؤذيه، والله لم يترك الحق وأمركم بالخروج.

وفي هذا إيماء إلى أن اللبث يحرم على المدعو إلى طعام بعد أن يطعم إذا كان فى ذلك أذى لرب البيت، ولو كان البيت غير بيت النبي صلى الله عليه وسلم، فالتثقيل مذموم في كل مكان، محتقر لدى كل إنسان[2].

٣. سؤال نساء النبي متاعًا من وراء حجاب.

فإذا سألتم أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونساء المؤمنين اللواتي لسن لكم بأزواج، شيئًا تتمتعون به من ماعون وغيره فاطلبوا منهن ذلك من وراء ستر بينكم وبينهن.

﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي: ذلك الدخول بالإذن وعدم الاستئناس للأحاديث أطهر لقلوبكم وقلوبهن من وساوس الشيطان والريب؛ لأن العين رسول القلب، فإذا لم تر العين لم يشته القلب، فالقلب عند عدم الرؤية أطهر، وعدم الفتنة[3].

ثالثًا: آداب بيوت سائر المخلوقات:

هناك آداب في دخول بيوت المخلوقين من الإنس والجن:

١. أن يكون الدخول على سنة الإسلام، وهو الإتيان من أبواب البيوت لا من ظهورها.

قال تعالى: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾

(١) تفسير المراغي ٢٢/ ٢٨.

(٢) المصدر السابق ٢٢/ ٢٩.

(٣) المصدر السابق ٢٢/ ٣٠.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ [البقرة:١٨٩].

فقد كان قوم من قريش وجماعة معهم من العرب إذا خرج الرجل منهم في حاجة فلم يقضها ولم تتيسر له رجع، فلم يدخل من باب بيته سنة، يفعل ذلك تطيرًا، فأعلمهم الله عز وجل أن ذلك غير بر، أي: الإقامة على الوفاء بهذه السنة ليس ببر، وقال الأكثر من أهل التفسير: إنهم الحمس، وهم قوم من قريش، وبنو عامر بن صعصعة وثقيف وخزاعة، كانوا إذا أحرموا لا يأقطون الأقط، ولا ينفون الوبر ولا يسلون السمن، وإذا خرج أحدهم من الإحرام لم يدخل من باب بيته، وإنما سموا الحمس لأنهم تحمسوا في دينهم، أي: تشددوا.

وأعلمهم أن البر التقي، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ﴾ والمعنى: ولكن البر بر من اتقى مخالفة أمر الله عز وجل، فقال: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ فأمرهم الله بترك سنة الجاهلية في هذه الحماسة[1]، ومن ثم أصبح إتيان البيوت من أبوابها هو السنة والأدب الذي ينبغي في إتيانها.

٢. الاستئذان.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [النور:٢٧].

ففي الآية هذه آداب شرعية، أدب الله بها عباده المؤمنين، وذلك في الاستئذان فقد أمرهم أن لا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم حتى يستأنسوا، أي: يستأذنوا قبل الدخول، ويسلموا بعده، وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات، فإن أذن له وإلا انصرف[2].

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور:٢٧].

يقول: استئناسكم وتسليمكم على أهل البيت الذي تريدون دخوله، خير لكم؛ لأنكم لا تدرون أنكم إذا دخلتموه بغير إذن، على ماذا تهجمون؟ على ما يسوؤكم أو يسركم؟ وأنتم إذا دخلتم بإذن، لم تدخلوا على ما تكرهون، وأديتم بذلك أيضًا حق الله عليكم في الاستئذان والسلام، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول: لتتذكروا بفعلكم ذلك أوامر الله عليكم، واللازم لكم من طاعته، فتطيعوه[3].

٣. السلام.

فمن دخل دارًا وجب عليه أن يسلم على الحاضرين، قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج١/ ٢٦٢. وانظر: البحر المحيط، أبو حيان٢/ ٢٣٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ٣٣.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٤٩.

﴿ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور:٦١].

ويدل على وجوب السلام ما يأتي:

الأول: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور:٢٧].

ولما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أفشوا السلام بينكم)** والأمر للوجوب[١].

الثاني: أن من دخل على إنسان كان كالطالب له، ثم المدخول عليه لا يعلم أنه يطلبه لخير أو لشر، فإذا قال: السلام عليك، فقد بشره بالسلامة وآمنه من الخوف، وإزالة الضرر عن المسلم واجبة، قال صلى الله عليه وسلم: **(المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه)**[٢] فوجب أن يكون السلام واجبًا، الثالث: أن السلام من شعائر أهل الإسلام، وإظهار شعائر الإسلام واجب، وأما المشهور فهو أن السلام سنة، وهو قول ابن عباس والنخعي[٣].

والسلام واجب في دخول عموم البيوت قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور:٦١].

فيجب السلام عند الدخول على الأهل والأقارب في البيوت المسكونة، وكذا غير المسكونة، فيسلم المرء فيها على نفسه بأن يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وكذا المساجد، فيسلم على من كان فيها، فإن لم يكن في المساجد أحد، فالسلام أن يقول المرء: السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله إبراهيم النخعي والحسن البصري عن آية: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ أراد: المساجد[٤].

قال ابن العربي: «القول بالعموم في البيوت هو الصحيح، ولا دليل على التخصيص»[٥]، «وبيانه أن الله سبحانه قال في الآية الأولى: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور:٢٧].

فنص على بيوت الغير، ثم قال في هذه الآية الثانية: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم ٥٤، ١/ ٧٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم١٠، ١/ ١١، من حديث عبدالله ابن عمرو رضي الله عنه، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل، رقم٤١، ١/ ٦٥، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي١٠/ ١٦٣.

(٤) التفسير المنير، الزحيلي١٨/ ٣٠٩.

(٥) أحكام القرآن٣/ ٤٢٧.

﴿أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١].

أي: ليسلم بعضكم على بعض، وأطلق القول؛ لأنه قد بين الحكم في بيوت الغير، ليدخل تحت هذا العموم كل بيت، كان للغير أو لنفسه، وقال: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١].

ليتناول اللفظ سلام المرء على عينه، وليأخذ المعنى سلام الناس بعضهم على بعض، فإذا دخل بيتًا لغيره استأذن، وإن دخل بيتًا لنفسه سلم، كما ورد في الحديث يقول: **(السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)**؛ قاله ابن عمر، وهذا إذا كان فارغًا.

فأما إذا كان فيه أهله وعياله وخدمه فليقل: السلام عليكم، فإنهم أهل للتحية منه، وإن كان مسجدًا فليقل كما جاء في الحديث: **(السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)**[(١)]، وعليه حمل ابن عمر البيت الفارغ.

والذي اختاره إذا كان البيت فارغًا أنه لا يلزم السلام، فإنه إذا كان المقصود الملك فالملائكة لا تفارق العبد بحال، أما إنه إذا دخلت بيتك يستحب لك ذكر الله»[(٢)].

وقال الطبري: «أولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال معناه: فإذا دخلتم بيوتًا من بيوت المسلمين، فليسلم بعضكم على بعض، وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب لأن الله جل ثناؤه قال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ ولم يخصص من ذلك بيتًا دون بيت، وقال: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ يعني: بعضكم على بعض، فكان معلومًا إذ لم يخصص ذلك على بعض البيوت دون بعض، أنه معني به جميعها، مساجدها وغير مساجدها، وقوله: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، بمعنى: تحيون أنفسكم تحية من عند الله السلام تحية فكأنه قال: فليحي بعضكم بعضًا تحية من عند الله، ووصف جل ثناؤه هذه التحية المباركة الطيبة لما فيها من الأجر الجزيل والثواب العظيم»[(٣)].

٤. دعاء دخول البيت.

ومن آداب دخول البيت: أن يقول الداخل الدعاء الوراد في حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إذا ولج الرجل بيته فليقل: اللهم إني أسألك خير المولج، وخير المخرج، بسم الله ولجنا، وبسم الله خرجنا وعلى الله ربنا توكلنا، ثم ليسلم على أهله)**[(٤)].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم٣٥١٤، ٢/ ٤٣٤.
قال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ولم يتعقبه الذهبي.

(٢) أحكام القرآن ٣/ ٤٢٦.

(٣) جامع البيان ١٩/ ٢٢٧.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما يقول الرجل إذا دخل بيته، رقم٥٠٩٦، ٤/ ٣٢٥.
والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع

٥. السواك.

فعن المقدام بن شريح، عن أبيه، قال: سألت عائشة، قلت: بأي شيء كان يبدأ النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل بيته؟ قالت: (بالسواك)[١].

أما آداب دخول مساكن الجن مبسوطة في السنة فليرجع إليها.

[انظر: الاستئذان: الاستئذان لدخول بيوت الآخرين]

البيوت والفتنة

إن البيوت والفتنة في القرآن الكريم تتمثل في: الاغترار بالبيوت، وأنها سبب للفرار من الجهاد، والبيت قد يكون مكانًا للخلوة بالنساء، وما يظن المنافقون من أن البيوت تمنع الموت، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الاغترار بالبيوت:

من الفتنة بالبيوت الاغترار بها، وهي من صفات الكافرين.

قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء:١٤٩].

أي: وتتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرًا وبطرًا من غير حاجة إلى سكناها مع الجد والاهتمام في بنائها[٢].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء:١٤٩].

قال ابن عباس وغير واحد: يعني: حاذقين، وفي رواية عنه: شرهين أشرين، وهو اختيار مجاهد وجماعة، ولا منافاة بينهما، فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرًا وبطرًا وعبثًا من غير حاجة إلى سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها، كما هو المشاهد من

الصغير وزيادته، رقم ٨٣٩، ١/ ٢٠٦.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب السواك، رقم٢٥٣، ١/ ٢٢٠.

(٢) تفسير المراغي١٩/ ٩١.

حالهم لمن رأى منازلهم[1].

والاغترار بالبيوت يؤدي إلى الأمن المذموم في قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الحجر:٨٢].

فقد كان أصحاب الحجر، وهم ثمود قوم صالح، ينحتون من الجبال بيوتًا آمنين من عذاب الله، وقيل: آمنين من الخراب أن تخرب بيوتهم التي نحتوها من الجبال، وقيل: آمنين من الموت[2].

قال ابن عطية: «وقوله ﴿آمِنِينَ﴾: قيل: معناه: من انهدامها، وقيل: من حوادث الدنيا، وقيل: من الموت لاغترارهم بطول الأعمال، قال القاضي أبو محمد ابن عطية: وهذا كله ضعيف، وأصح ما يظهر في ذلك أنهم كانوا يأمنون عواقب الآخرة. فكانوا لا يعملون بحسبها، بل كانوا يعملون بحسب الأمن منها»[3].

كما أن الاغترار بالبيوت يؤدي أيضًا إلى كفران النعم والفساد في الأرض، كما قال تعالى عن قوم صالح عليه السلام: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف:٧٤].

وذلك؛ لأن بناء البيوت وتشييد القصور ونحت الجبال بيوتًا من النعم التي تستوجب الشكر، فقد ذكر صالح عليه السلام قومه بما أنعم الله به عليهم، وهي جعلهم خلفاء بعد الأمة التي سبقتهم، وما اختصوا به من اتخاذ القصور من السهول ونحت الجبال بيوتًا، ثم طلب منهم شكر هذه النعم بقوله: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾[4]، أي: نعمه عليكم لتصرفوها إلى ما خلقها لأجله ولا تعثوا في الأرض مفسدين بالمعاصي وعبادة غيره تعالى[5].

ثانيًا: سبب للفرار من الجهاد:

بين الله سبحانه وتعالى أن البيوت فتنة للمنافقين وسبب للفرار من الجهاد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب:١٣].

فقد ذكر الله تعالى أن المنافقين يحرضون بعض المجاهدين على ترك الجهاد والرجوع

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ١٤٠.
وانظر: الوسيط، الواحدي٣/ ٣٦٠، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٣٠، مدارك التنزيل، النسفي٢/ ٥٧٦.
(٢) جامع البيان، الطبري١٧/ ١٢٧.
(٣) المحرر الوجيز٣/ ٣٧٢.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان٥/ ٩٣.
(٥) محاسن التأويل، القاسمي٥/ ١٢٧.
وانظر: جامع البيان، الطبري١٢/ ٥٠٦، مفاتيح الغيب، الرازي١٤/ ٣٠٦.

إلى بيوتهم، بل إن بعضهم جعل البيوت سببًا للفرار من الجهاد، والمعنى: لا مقام لكم أي: هاهنا يعنون عند النبي صلى الله عليه وسلم في مقام المرابطة، فارجعوا أي: إلى بيوتكم ومنازلكم[1].

ويستأذن بعضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإذن بالانصراف عنه إلى منزله، ولكنه يريد الفرار والهرب من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكذبهم الله تعالى وأعلم أن قصدهم الهرب والفرار، لضعف إيمانهم، وجبن نفوسهم[2].

ثالثًا: البيت قد يكون مكانًا للخلوة:

من فتنة البيوت ما يقع فيها من خلوة محضورة بالنساء وقد صور الله تعالى فتنة البيوت هذه بقوله: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف:٢٣].

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه، فراودته عن نفسه، أي: حاولته على نفسه ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حبًّا شديدًا لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها، وقالت: هيت لك، فامتنع من ذلك أشد الامتناع، و﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ وكانوا يطلقون الرب على السيد الكبير، أي: إن بعلك ربي أحسن مثواي أي: منزلي، وأحسن إلي فلا أقابله بالفاحشة في أهله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[3].

والتعبير عن امرأة العزيز بطريق الموصولية في قوله: ﴿ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ لقصد ما تؤذن به الصلة من تقرير عصمة يوسف صلى الله عليه وسلم لأن كونه في بيتها من شأنه أن يطوعه لمرادها، وبيتها بيت سكناها الذي تبيت فيه، فمعنى هو في بيتها أنه كان حينئذ في البيت الذي هي به، ويجوز أن يكون المراد بالبيت: المنزل كله، وهو قصر العزيز، ومنه قولهم: ربة البيت، أي: زوجة صاحب الدار، ويكون معنى هو في بيتها أنه من جملة أتباع ذلك المنزل[4].

ولمنع هذه الفتنة فقد حرم النبي صلى الله عليه وسلم الدخول على النساء، وذلك فيما رواه عقبة بن عامر رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(إياكم والدخول على النساء) فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟**

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ٣٤٨.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري٢٠/ ٢٢٦، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٤/ ٢١٩، الوسيط، طنطاوي ١١/ ١٨٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٤/ ٣٢٥.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور١٢/ ٢٥٠.

قال: (الحمو الموت)[1].

والحمو أخو الزوج وما أشبهه من أقارب الزوج ابن العم ونحوه، اتفق أهل اللغة على أن الاحماء أقارب زوج المرأة كأبيه وعمه وأخيه وابن أخيه وابن عمه ونحوهم، والأختان أقارب زوجة الرجل والأصهار يقع على النوعين، وأما قوله صلى الله عليه وسلم: الحمو الموت، فمعناه: أن الخوف منه أكثر من غيره، والشر يتوقع منه، والفتنة أكثر لتمكنه من الوصول إلى المرأة والخلوة من غير أن ينكر عليه بخلاف الأجنبي، والمراد بالحمو هنا: أقارب الزوج غير آبائه وأبنائه فأما الآباء والأبناء فمحارم لزوجته تجوز لهم الخلوة بها ولا يوصفون بالموت وإنما المراد: الأخ وابن الأخ والعم وابنه ونحوهم ممن ليس بمحرم وعادة الناس المساهلة فيه ويخلو بامرأة أخيه، فهذا هو الموت وهو أولى بالمنع من الأجنبي[2].

وكذلك ما رواه جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ألا لا يبيتن رجل عند امرأة ثيب، إلا أن يكون ناكحًا أو ذا محرم)**[3].

قال الإمام النووي: «ومعناه: لايبيتن رجل عند امرأة إلا زوجها أو محرم لها، قال العلماء: إنما خص الثيب لكونها التي يدخل إليها غالبًا، وأما البكر فمصونة متصونة في العادة مجانبة للرجال أشد مجانبة، فلم يحتج إلى ذكرها؛ ولأنه من باب التنبيه؛ لأنه إذا نهي عن الثيب التي يتساهل الناس في الدخول عليها في العادة، فالبكر أولى، وفي هذا الحديث تحريم الخلوة بالأجنبية وإباحة الخلوة بمحارمها، وهذان الأمران مجمع عليهما»[4].

رابعًا: البيوت لا تمنع الموت:

إن البيوت لا تمنع الموت.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخول على المغيبة، رقم٥٢٣٢، ٧/ ٣٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها، رقم٢١٧٢، ٤/ ١٧١١.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٤/ ١٥٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها، رقم٤/ ١٧١٠، ٢١٧١.

(٤) شرح صحيح مسلم١٤/ ١٥٣.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران:١٥٤].

قال أبو جعفر الطبري: «يعني بذلك جل ثناؤه: قل، يا محمد، للذين وصفت لك صفتهم من المنافقين: لو كنتم في بيوتكم لم تشهدوا مع المؤمنين مشهدهم، ولم تحضروا معهم حرب أعدائهم من المشركين، فيظهر للمؤمنين ما كنتم تخفونه من نفاقكم، وتكتمونه من شككم في دينكم ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ﴾، أي: لظهر للموضع الذي كتب عليه مصرعه فيه، من قد كتب عليه القتل منهم، ولخرج من بيته إليه حتى يصرع في الموضع الذي كتب عليه أن يصرع فيه»[(١)].

﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡ﴾ أي: لخرج الذين قدر الله عليهم القتل وكتبه في اللوح المحفوظ إلى مصارعهم ولم تنفعهم الإقامة بالمدينة ولم ينج منهم أحد، فإنه قدر الأمور ودبرها في سابق قضائه لا معقب لحكمه.

﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١٥٤].

أي: وليمتحن ما في صدوركم ويظهر سرائرها من الإخلاص والنفاق، ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡ﴾، أي: وليكشفه ويميزه أو يخلصه من الوساوس.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بخفياتها قبل إظهارها، وفيه وعد ووعيد وتنبيه على أنه غني عن الابتلاء، وإنما فعل ذلك لتمرين المؤمنين وإظهار حال المنافقين[(٢)].

والخلاصة: إن الحذر لا يدفع القدر، والتدبير لا يقاوم التقدير فالذين قدر عليهم القتل لا بد أن يقتلوا على كل حال، وإلا انقلب علم الله جهلًا، فقتل من قتل إنما جاء لانتهاء آجالهم كما قدر ذلك في اللوح المحفوظ، وكتب مع ذلك أنهم هم الغالبون، وأن العاقبة لهم، وأن دين الإسلام سيظهر على الدين كله.

وفي هذا ترغيب وترهيب، وتنبيه إلى أن الله غني عن الابتلاء والامتحان، وإنما يظهر ذلك على هذه الصورة لحكم يعلمها كمران المؤمنين على الصبر وتحمل المشاق وإظهار حال المنافقين؛ لأن الحقائق قد تخفى على أربابها، فينخدعون للشعور العارض بدون تمحيص ولا ابتلاء، كما انخدع الذين تمنوا الموت من قبل أن يلقوه[(٣)].

(١) جامع البيان، الطبري٧/ ٣٢٤.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي٢/ ٤٤.

(٣) تفسير المراغي٤/ ١٠٥.

البيوت والعذاب

ذكر القرآن الكريم البيوت والعذاب على صور مثل: خراب البيوت وخوائها، وترك بعضها آية وعبرة، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: خراب البيوت:

ذكر الله تعالى خراب البيوت في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر:٢].

والمعنى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِ﴾ أي: في أول حشرهم من جزيرة العرب إذ لم يصبهم هذا الذل قبل ذلك، أو في أول حشرهم للقتال أو الجلاء إلى الشام، وآخر حشرهم إجلاء عمر رضي الله عنه تعالى عنه إياهم من خيبر إليه، أو في أول حشر الناس إلى الشام وآخر حشرهم أنهم يحشرون إليه عند قيام الساعة فيدركهم هناك، أو أن نارًا تخرج من المشرق فتحشرهم إلى المغرب، والحشر إخراج جمع من مكان إلى آخر، ﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْ﴾ لشدة بأسهم ومنعتهم، ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: أن حصونهم تمنعهم من بأس الله، وتغيير النظم وتقديم الخبر وإسناد الجملة إلى ضميرهم للدلالة على فرط وثوقهم بحصانتها واعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة بسببها، ويجوز أن تكون حصونهم فاعلًا لـ ﴿مَّانِعَتُهُمۡ﴾، ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: عذابه، وهو الرعب والاضطرار إلى الجلاء، ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾ لقوة وثوقهم، ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾ وأثبت فيها الخوف الذي يرعبها أي: يملؤها، ﴿يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ ضنًّا بها على المسلمين وإخراجًا لما استحسنوا من آلاتها، ﴿وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فإنهم أيضًا كانوا يخربون ظواهرها نكاية وتوسيعًا لمجال القتال، وعطفها على «أيديهم» من حيث إن تخريب المؤمنين مسبب عن نقضهم، فكأنهم استعملوهم فيه[1].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني: يهود بني النضير، قاله ابن عباس ومجاهد والزهري وغير واحد: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهدًا وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه، فأحل الله بهم بأسه الذي لا مرد له، وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يصد، فأجلاهم النبي صلى

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٩٨.

الله عليه وسلم وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله، فما أغنى عنهم من الله شيئًا وجاءهم من الله ما لم يكن ببالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله، وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم[1].

ثانيًا: خواء البيوت:

إن خواء البيوت من العذاب الواقع عليها قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل:٥٢].

أي: فتلك مساكنهم خاوية خالية منهم، ليس فيها منهم أحد، قد أهلكهم الله فأبادهم بسبب ظلمهم أنفسهم بشركهم بالله وتكذيبهم رسولهم[2].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

أي: أن في فعلنا بثمود ما قصصناه عليك لعظة لمن كان من أولي المعرفة والعلم، فيعلم ارتباط الأسباب بمسبباتها، والنتائج بمقدماتها بحسب السنن التي وضعت في الكون[3].

«خاوية» أي: ساقطة متهدمة، لا أثر لحياة فيها.. والإشارة هنا، لفت للأنظار إلى هذه الديار الخاوية، حيث ينظر المشركون إلى حيث متجه الإشارة، فلا يرون إلا أطلالًا، يرى فيها أولو العلم وأهل النظر، آية من آيات الله، فيما يحل بالظالمين من بأسه، وما يرميهم به من عذابه[4].

وقد اشتملت هذه الآيات الكريمة، ثلاثة أمور:

الأول: أنه دمر جميع قوم صالح، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾، أي: خالية من السكان لهلاك جميع أهلها، ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾، أي: بسبب ظلمهم الذي هو كفرهم وتمردهم وقتلهم ناقة الله التي جعلها آية لهم، وقال بعضهم: خاوية، أي: ساقطًا أعلاها على أسفلها.

الثاني: أنه جل وعلا جعل إهلاكه قوم صالح آية، أي: عبرة يتعظ بها من بعدهم، فيحذر من الكفر، وتكذيب الرسل، لئلا ينزل به ما نزل بهم من التدمير، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

الثالث: أنه تعالى أنجى الذين آمنوا وكانوا يتقون من الهلاك والعذاب، وهو نبي الله صالح عليه السلام ومن آمن به من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٨/ ٨٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري١٩/ ٤٨٠.
(٣) انظر: تفسير المراغي١٩/ ١٤٩.
(٤) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب١٠/ ٢٥٦.

قومه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل:٥٣][1].

ثالثًا: ترك بعضها آية وعبرة:

ترك الله تعالى بعض البيوت التي وقع عليها العذاب آية وعبرة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص:٥٨].

فتلك دور القوم الذين أهلكناهم بكفرهم بربهم، ومنازلهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا يقول: خربت من بعدهم، فلم يعمر منها إلا أقلها، وأكثرها خراب. ولفظ الكلام وإن كان خارجًا على أن مساكنهم قد سكنت قليلًا فإن معناه: فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا منها، كما يقال: قضيت حقك إلا قليلًا منه[2].

والمعنى: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني: فلم يعمر منها إلا أقلها، وأكثرها خراب، قال ابن عباس رضي الله عنه: لم يسكنها إلا المسافر ومار الطريق يومًا أو ساعة ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ نظيره قوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم:٤٠].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٨٠][3].

قال ابن عباس رضي الله عنه: في قوله: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [القصص:٥٨].

لم يسكنها إلا المسافرون، ومارروا الطرق يومًا أو ساعة. والمعنى: لم تسكن من بعدهم إلا سكونًا قليلًا، ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص:٥٨].

يعني: لم يخلفهم أحد بعد هلاكهم في منازلهم، فبقيت خرابًا غير مسكونة، كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم:٤٠][4].

فقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي: رجعت خرابًا ليس فيها أحد[5].

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات:٣٦-٣٧].

والمعنى: وتركنا في القرية المذكورة، وهي سدوم أثرًا من العذاب باقيًا مؤرخًا لا يفنى ذكره فهو: آية أي: علامة على قدرة الله وانتقامه من الكفرة، ويحتمل أن يكون، المعنى: وتركنا في أمرها، كما قال: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي٦/ ١٢٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري١٩/ ٦٠٣.
(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي٧/ ٢٥٦.
(٤) انظر: الوسيط، الواحدي٣/ ٤٠٤.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ٢٢٣.

﴿٧﴾ [يوسف:٧][1].

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات:٣٧].

أي: جعلناها عبرة لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين الذين يخافون العذاب الأليم[2].

وقد عقب الله تعالى على الآيات الواردة في عذاب البيوت بأن جعلها عبرة وعظة للمعتبرين، ففي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر:٢].

أي: تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم.

﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي: تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم[3].

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ١٧٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٩٤.
(٣) انظر: المصدر السابق ٨/ ٨٦.

النساء والبيوت

ذكر القرآن الكريم النساء والبيوت في موضوعات تتعلق بهن مثل: القرار في البيوت، والتعلم والتعليم فيها، وفي لزوم البيوت في قضاء العدة، والحبس في البيوت عند ارتكاب الفاحشة، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: القرار في البيوت:

قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب:٣٣].

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي صلى الله عليه وسلم ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، وذلك فيما يأتي:

١. القرار في البيوت.

قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: الزمن فلا تخرجن لغير حاجة، ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخرجن وهن تفلات**)[4].

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم؟، رقم٩٠٠، ٢/ ٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب

وفي رواية (وبيوتهن خير لهن)[1][2].

ولهذا كانت الدعوة إليهن بالقرار في البيوت مقترنة بالدعوة بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة وإطاعة الله ورسوله، فهذا هو دأبهن في الحياة.. الاتجاه إلى الله، والعمل لما يرضي الله، ورسول الله صلى الله عليه وسلم[3].

وخص تعالى الصلاة والزكاة، لأهميتهما وخطورتهما وآثارهما الكبرى، فالأولى طهارة النفس وعماد الدين، والثانية طهارة المال وطريق مقاومة الفقر، فهما عمودا الطاعة البدنية والمالية[4].

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ قرئت على وجهين: فقرأ المدنيان، وعاصم بفتح القاف، وقرأ الباقون بكسرها[5].

فأما القراءة الأولى فتحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون من الوقار، تقول: وقر يقر وقارًا أي: سكن، وتأويلها كن أهل وقار وسكينة.

والوجه الثاني: أن يكون من القرار، تقول: قررت بالمكان (بفتح الراء) وأما قراءة أهل المدينة وعاصم، فعلى لغة العرب: قررت في المكان إذا أقمت فيه[6].

ومعنى هذه الآية: الأمر بلزوم البيت، وإن كان الخطاب لنساء النبي صلى الله عليه وسلم فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى، هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء، كيف والشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن، والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة، فأمر الله تعالى نساء النبي صلى الله عليه وسلم بملازمة بيوتهن، وخاطبهن بذلك تشريفًا لهن[7].

وبهذا تكون الآية قد طلبت من النساء القرار في البيوت والإقامة فيها مع لزوم السكينة والوقار في أقوالهن وأفعالهن عملًا بالقراءتين.

٢. النهي عن التبرج.

وهو: إظهار الزينة، وإبراز المرأة محاسنها للرجال[8].

عليه فتنة، وأنها لا تخرج مطيبة، رقم٤٤٢، ١/ ٣٢٧.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٥٤٦٨، ٩/ ٣٣٧، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب ما جاء في خروج النساء إلى المسجد، رقم٥٦٧١/ ١٥٥، والحاكم في مستدركه ، رقم٧٥٥، ١/ ٣٢٧.
والحديث صححه الحاكم، والألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم٧٤٥٨، ٢/ ١٢٤٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ٣٦٣.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب١١/ ٧٠٦.

(٤) التفسير المنير، الزحيلي٢٢/ ١٠.

(٥) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٢/ ٣٤٨.

(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٧٨.

(٧) انظر: المصدر السابق ١٤/ ١٧٩.

(٨) انظر: جامع البيان، الطبري٢٠/ ٢٦٠.

قال الشوكاني: التبرج: «أن تبدي المرأة من زينتها ومحاسنها ما يجب عليها ستره، مما تستدعي به شهوة الرجل»[١].

والمقصود من الآية: مخالفة من قبلهن من المشية على تغنيج وتكسير وإظهار المحاسن للرجال، إلى غير ذلك مما لا يجوز شرعًا، وذلك يشمل الأقوال كلها ويعمها فيلزمن البيوت، فإن مست الحاجة إلى الخروج فليكن على تبذل وتستر تام[٢].

والجاهلية الأولى هي: القديمة التي يقال لها: الجاهلية الجهلاء، وهي الزمن الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام: كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ فتمشي وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال، وقيل: ما بين آدم ونوح عليهما الصلاة والسلام، وقيل: بين إدريس ونوح عليهما الصلاة والسلام، وقيل: زمن داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام والجاهلية الأخرى: ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى: جاهلية الكفر قبل الإسلام، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام، فكأن المعنى: ولا تحدثن بالتبرج جاهلية في الإسلام تتشبهن بها بأهل جاهلية الكفر[٣].

قال ابن عاشور: «والجاهلية: المدة التي كانت عليها العرب قبل الإسلام والجاهلية نسبة إلى الجاهل؛ لأن الناس الذين عاشوا فيها كانوا جاهلين بالله وبالشرائع، ووصفها بـ(الأولى) وصف كاشف؛ لأنها أولى قبل الإسلام، وجاء الإسلام بعدها ومن المفسرين من جعلوه وصفًا مقيدًا، وجعلوا الجاهلية جاهليتين، فمنهم من قال: الأولى هي: ما قبل الإسلام، وستكون الجاهلية أخرى بعد الإسلام يعني: حين ترتفع أحكام الإسلام والعياذ بالله، ومنهم من قال: الجاهلية الأولى هي القديمة من عهد ما قبل إبراهيم عليه السلام ولم يكن للنساء وازع ولا للرجال، ووضعوا حكايات في ذلك مختلفة أو مبالغًا فيها أو في عمومها، وكل ذلك تكلف دعاهم إليه حمل الوصف على قصد التقييد»[٤].

ثانيًا: التعلم والتعليم:

دل قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾ [الأحزاب:٣٤].

على التعلم والتعليم للنساء أنه يكون في البيوت.

يقول تعالى ذكره لأزواج نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: واذكرن نعمة الله عليكن؛

(١) فتح القدير ٤/ ٣٢٠.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٨٠.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٣٧.
(٤) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٣.

بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله على ذلك، واحمدنه عليه، وعني بقوله ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: واذكرن ما يقرأ في بيوتكن من آيات كتاب الله والحكمة، ويعني بالحكمة: ما أوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحكام دين الله، ولم ينزل به قرآن، وذلك السنة(١).

ولفظ (الذكر) هنا يحتمل مقصدين كلاهما موعظة وتعديد نعمة: أحدهما: أن يريد ﴿وَٱذْكُرْنَ﴾، أي: تذكرنه واقدرنه قدره وفكرن في أن من هذه حاله ينبغي أن تحسن أفعاله، والآخر: أن يريد ﴿وَٱذْكُرْنَ﴾ بمعنى: احفظن واقرأن والزمنه الألسنة، فكأنه يقول: واحفظوا أوامر الله ونواهيه، وذلك هو الذي يتلى في بيوتكن من آيات الله، وذلك مؤد بكن إلى الاستقامة(٢).

وهذا حث لهن على حفظ القرآن والأخبار، ومذاكرتهن بهما للإحاطة بحدود الشريعة، والخطاب وإن اختص بهن فغيرهن داخل منه؛ لأن مبنى الشريعة على هذين القرآن والسنة، وبهما يؤقت على حدود الله ومفترضاته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ بأوليائه، ﴿خَبِيرًا﴾ بجميع خلقه(٣).

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٦٧.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٨٤.
(٣) انظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٧٠.

ثالثًا: العدة:

نهى الله تعالى الرجال عن إخراج المطلقات من البيوت، كما نهى المطلقات عن الخروج باختيارهن.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۝١﴾ [الطلاق:١].

والمعنى: لا تخرجوهن من بيوتهن، ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أي: لا تخرجوا المطلقات من بيوتهن في مدة العدة، فلكل امرأة معتدة حق السكنى على الزوج، ما دامت معتدة منه، فليس للرجل أن يخرجها، ولا يجوز لها أيضًا الخروج، فليس للمعتدات الزوجات الخروج من تلك البيوت ما دمن في العدة إلا لأمر ضروري، رعاية لحق الزوج، فإذا خرجت المعتدة لغير ضرورة ليلًا أو نهارًا، كان الخروج حرامًا.

وفيه دليل على وجوب السكنى للزوجات المطلقات أو المعتدات ما دمن في العدة، وأضاف البيوت إليهن، وهي لأزواجهن لتأكيد النهي عن الإخراج والخروج، ببيان كمال استحقاقهن للسكنى،

كأنها ملك لهن[1].

وقد جعل الله لهن هذا الحق ما لم يأتين بفاحشة، والمعنى: أي لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة فتخرج من المنزل، والفاحشة المبينة تشمل الزنا، كما قاله ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب والشعبي، والحسن وابن سيرين ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو قلابة، وأبو صالح والضحاك وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني والسدي وسعيد بن أبي هلال وغيرهم، وتشمل ما إذا نشزت المرأة أو بذت على أهل الرجل وآذتهم في الكلام والفعال، كما قاله أبي بن كعب وابن عباس وعكرمة وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: شرائعه ومحارمه، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي: يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها، فقد ظلم نفسه أي بفعل ذلك[2].

رابعًا: الإمساك في البيوت:

كان من حكم النساء اللاتي يأتين بالفاحشة ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [النساء:١٥].

قال ابن كثير: «كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة، حبست في بيت فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت، ولهذا قال ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾ يعني: الزنا من نسائكم ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٥].

فالسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك، قال ابن عباس رضي الله عنه: كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم، وكذا روي عن عكرمة، وسعيد بن جبير والحسن وعطاء الخراساني وأبي صالح وقتادة وزيد بن أسلم والضحاك: أنها منسوخة، وهو أمر متفق عليه»[3].

قال الرازي: «واعلم أنه كان في أول الإسلام عقوبة الزاني الحبس إلى الممات في حق الثيب، والأذى بالكلام في حق البكر، ثم نسخ ذلك فجعل حد الزنا على الثيب الرجم وحد البكر الجلد والتغريب»[4]، والحجة عليه: حديث عبادة ابن الصامت رضي الله عنه:(خذوا عني

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي٢٨/ ٢٦٨.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٨/ ١٦٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم٢/ ٢٠٤، وانظر: نواسخ القرآن لابن الجوزي٢/ ٣٥٥.
(٤) مفاتيح الغيب ٢٣/ ٣٠٥.

خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلًا: البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة)[1][2].

موضوعات ذات صلة:

الاستئذان، بيت النبوة، العذاب، الفتنة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب حد الزنى، رقم ١٦٩٠، ٣/ ١٣١٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٤٠٦.